



الجزء الثالث

النظرة المسيحية إلى العالم

تتركز مهمتنا المقبلة على فهم منظومة الإيمان المسيحية. فأى استحضار وجيز لتاريخنا الثقافي والفكري لا بد له من مقارنة هذه المهمة بعناية؛ لأن المسيحية تولت رئاسة الثقافة الغربية خلال الجزء الأكبر من وجودها، ليس فقط حاملة حافظها الروحي المركزي على امتداد ألفيتين كاملتين، بل ومؤثرة في تطورها الفلسفي والعلمي، وصولاً إلى عصري النهضة، فالتنوير. حتى الآن، مازالت النظرة المسيحية إلى العالم تمارس، بصيغ أقل وضوحاً، ولكن ليست أقل أهمية، تأثيراً في -بل وتطفئ بالفعل على- الروح الثقافية الغربية، حتى حين تكون الأخيرة صارخة العلمانية في مواقفها.



من المتعذر الآن تأكيد ما صدر عن يسوع الناصري التاريخي بالذات من قول، وفعل، ومعتقد بدقة. لم يكتب يسوع شيئاً للأجيال المقبلة، ومثله في هذا مثل سقراط. من المسلم به نسبياً استناداً إلى الدراسات التاريخية والتأويلات النصية أنه وعظ، في إطار التراث الديني اليهودي، داعياً إلى التوبة انتظاراً لمجيء مملكة الرب (أو ملكوت السماء) الوشيك، أنه رأى هذه المملكة البازغة حاضرة سلفاً في أقواله وأفعاله، وأنه تعرض، جراء هذه المزاعم، للإعدام على يد الوالي الروماني بيبلاطوس النبطي نحو عام 30م. إن حشدًا من العناصر الرئيسية الأخرى لحياة يسوع التي تعد مقدسة في العقيدة المسيحية - قصة القيامة المسرحية، وجملة حكايات الإعجاز المختلفة، ووقوف يسوع على حقيقة الثالوث (الأب والابن والروح القدس)، واعتزاه تأسيس دين جديد- متعذر على الإثبات الحاسم، عبر الرجوع إلى الأدلة التاريخية والنصية.

إن الأسفار أو الأناجيل الأربعة للعهد الجديد لم تؤلف، وأسس العقيدة المسيحية لم تُرسخ من قبل أبناء وأحفاد أتباع يسوع المباشرين، وصولاً إلى صياغة بنيان إيماني متقن ومتناظر أحياناً، إلا بعد حلول النصف الثاني من القرن الأول. جاء هذا البنيان منطوياً، ليس فقط على وقائع حياة يسوع الباقية في الذاكرة، بل وعلى سلسلة طويلة متنوعة الحلقات من السير، والأساطير، والحكايات والأقوال المأثورة، من الرؤى والنبوءات اللاحقة، من التراتيل والصلوات، من المعتقدات الرؤيوية الكارثية (كما في سفر الرؤيا) من متطلبات الكنيسة الفتية على صعيد المواعظ التعليمية، من النظائر المتمفصلة مع الكتب المقدسة العبرية، مع جملة التأثيرات الأخرى اليهودية، اليونانية، واللاأدرية، ومن اللاهوت والنظرة التاريخية الخلاصيين - موحدة جميعاً عبر التزام مؤلفي الأناجيل الإيمانية بالدين الجديد. أما مدى النجاح الذي بلغه هذا المجمع النهائي في عكس الوقائع والتعاليم الفعلية لحياة يسوع فيبقى إشكالياً. إن أقدم الوثائق المسيحية الباقية هي رسائل بولس الذي لم يلتق بيسوع قط. يبقى يسوع الذي بات التاريخ يعرفه، إذًا، هو يسوع المصوّر - المتذكّر، المعاد تركيبه، المفسّر، الملمّع، المتخيّل بخيال خصب - في العهد الجديد من قبل كتاب عاشوا بعد جيل أو اثنين من المدة التي تغطيها رواياتهم، وعطفوا تأليفها على تلاميذ يسوع المباشرين الأصليين.

حتى هذه الكتابات اختيرت تدريجياً، بوصفها آيات وحي حقيقية صادرة عن الرب من قبل التراتبية الكنسية المبكرة من كتلة أكبر من المواد التي كان بعضها (عموماً مؤلفة في أوقات لاحقة) يقدم وجهات نظر مختلفة جذرياً عن الأحداث المطروحة للمناقشة. والكنيسة الأرثوذكسية التي جعلت هذه الأحكام ذات الأهمية الحاسمة بالنسبة إلى التشكيل اللاحق للمنظومة الإيمانية المسيحية عدت نفسها مرجعية مؤسسة مع أوائل الحواريين والتلاميذ ومكرسة سماوياً ودينياً من قبل الكتاب المقدس. كانت الكنيسة ممثلة الله على الأرض، مؤسسة مقدسة من شأن تراثها المتواصل أن يشكل المفسّر الحصري لوحى الله الموجه إلى الإنسانية. ومع البروز التدريجي للكنيسة، بوصفها البنيان والنفوذ المهيمنين في الديانة المسيحية المبكرة، جرى اعتماد الكتابات التي

باتت تؤلف العهد الجديد، مضافةً إلى الإنجيل العبري (العهد القديم «التوراة»)، بوصفها الأساس الشرعي والتشريعي الناظم للتراث المسيحي، وقد كانت هذه، عملياً، عنصراً حاسماً في تحديد معايير النظرة المسيحية المتطورة إلى العالم.

هذه الكتابات سوف تشكل، إذاً، أساساً لدراستنا الحالية التي تتناول الظاهرة المسيحية. ولأن موضوعنا هو طابع وديناميكية العلاقة بين النظرات العالمية السائدة والمهيمنة في الحضارة الغربية، فإن اهتمامنا هنا متركز على التراث المسيحي الذي بقي فارقاً نفوذه الثقافي على الغرب، منذ سقوط روما وحتى الحقبة الحديثة. ما كان الغرب المسيحي يرى أنه صحيح عن العالم وعن موقع البشر فيه هو اهتمامنا المحدد، وتلك النظرة العالمية كانت مستندة إلى قاعدة الوحي الكنسي المقدس، ثم جرى بالتدريج تعديلها، وتطويرها، وتوسيعها بفعل سلسلة مختلفة من العوامل اللاحقة في ظل الإشراف والإرشاد التسلطي للثقافة الكنسية في المقام الأول. قد يبدو واقع قيام الكنيسة بترسيخ المرجعية الإلهية للنص الديني، وأن الأخير هو الذي تولى ترسيخ السلطة السماوية للكنيسة، واقعاً غير مباشر، غير أن ذلك التصديق المتبادل التكافلي الذي تأكد في العقيدة جراء الألفة الكنسية المستمرة، كان عملياً، ناظم عملية تشكل النظرة المسيحية. هذا التراث، بصيغته الإنجيلية التأسيسية من جهة وبتطوراته اللاحقة من جهة ثانية، هو، إذاً، موضوع بحثنا.

بداية، دعونا نوجه انتباهنا إلى ذلك التراث الذي خرجت المسيحية من رحمه، أعني تراث الإسرائيليين المنحدرين من إبراهيم وموسى، ذلك التراث المركز بكثافة، والصارم أخلاقياً، والغني دينياً.

التوحيد اليهودي وتأليه التاريخ

في الرؤية العبرية يتشابك اللاهوت والتاريخ تشابكاً، لا انفصام له. أفعال الرب وأحداث التجارب الإنسانية تؤلف واقعاً واحداً، والسرد التوراتي للماضي العبري يكاد لا يهدف إلا إلى الكشف عن منطق الإلهي، بدلاً من إعادة بناء سجل تاريخي مجدد. وكما في المسيحية، يتعذر تمييز الأسطورة عن الواقع بوضوح في التاريخ المبكر لليهودية.

ولكن من شأن نواة تاريخية محددة لفهم الذات اليهودية التقليدية أن تتجلى، بالرغم من أن تحريفات وإضافات توراتية لاحقة تحجب حقيقة انبثاق شعب معين في الشرق الأوسط القديم يؤمن بديانة توحيدية من رحم خلفية سابقة (خلفية ممتدة إلى الآباء إبراهيم، إسحاق، ويعقوب في العقود الأولى من القرن الثاني قبل الميلاد) مؤلفة من قبائل شبه بدوية، مع عناصر تعددية آلهة في عبادتها.

من المؤكد أن تاريخ الشعب العبري ورسالته وديانته لم تكن شبيهة بما لدى أي شعب آخر في العالم القديم. ففي زحمة عدد كبير من الأمم، الأقوى والمتقدمة أكثر في الغالب، راح العبرانيون يتصرفون، كما لو كانوا الشعب المختار، المميز كأمة من شأن تاريخها أن ينطوي على نتائج روحية ذات شأن بالنسبة إلى العالم كله. وفي قلب أرض كانت فيها قبائل وأمم محيطة تعبد حشداً من آلهة الطبيعة آمن العبرانيون بأنهم على علاقة فريدة ومباشرة مع الرب الواحد المطلق الموجود فوق جميع الكائنات الأخرى وخلفها، بوصفه خالقاً للعالم وموجهاً لدفة تاريخ هذا العالم. وبالفعل، فإن العبرانيين تصوروا تاريخهم مستمراً، وعاكساً لبديات الخلق الأولى بالذات، حيث كان الرب قد صنع العالم، وعلى صورته هو، الإنسان. ومع العصيان الأول لآدم وحواء وطردهما من جنة عدن، كانت مسرحية نفي الإنسان الدرامية من السماء قد بدأت، وتتجدد مرة بعد أخرى -هايبيل وقايل، نوح والطوفان، برج بابل- إلى أن تمت دعوة إبراهيم إيمانياً باتباع الخطة التي رسمها الرب لشعبه.

في أثناء الخروج، حين تولى موسى قيادة العبرانيين وتحريرهم من الأسر في مصر، ثم التأسيس للعهد المقدس الذي تماهت إسرائيل من خلاله مع الرب: يهوا، ورائته سيد التاريخ المنقذ¹⁵. على هذه القاعدة التاريخية استند إيمان الإسرائيليين المتواصل بالوعد القائم على تحققهم المستقبلي. عبر تبنيهم لوصايا الرب التي نزلت على موسى على جبل سيناء، أقدم العبرانيون، بامتثال، على خطب ود ربهم ومشيتته غير القابلة للتجاوز أو الإنغاز. لم يكن إله العبرانيين إلا إله المعجزات والأهداف الدائب على إنقاذ الأمم أو سحقها، وعلى استخراج الماء من بطن الصخور، واستئزال الطعام من السماء، وإنجاز خطته الخاصة بإسرائيل. لم يكن إلههم خالقاً وحسب بل ومحزراً،

وقد طمأن شعبه، إذ وعده بمصير مجيد شرط بقاءه وفياً له وملتزمًا بشريعته.

بقيت ضرورة الثقة بالرب والرغبة منه مهيمتين على الحياة اليهودية، بوصفهما شرطاً مسبقاً للاستمتاع بنعمة قوته الإنقاذية في العالم. هنا بالذات كان الشعور الطاغي بالإلحاحية الأخلاقية، بكون القدر محدداً آخر المطاف بالأفعال الإنسانية الحاضرة، وبمسؤولية الفرد المباشرة أمام إله كلي الرؤية وكلي العدالة. من هنا أيضاً كان شجب أي مجتمع ظالم، واحتقار النجاح العلماني الفارغ، والدعوة النبوية إلى التجدد الأخلاقي. ثمة رسالة سماوية نزلت على اليهود، داعية إياهم إلى الاعتراف بسيادة الرب على العالم، وإلى الإسهام في تحقيق غايته - جلب السلام، والعدالة، والنجاح للبشرية كلها. وهذه الخطة الأخيرة تجلت بوضوح في القرون اللاحقة من التاريخ المتقلب المضطرب لإسرائيل القديمة، خلال السبي البابلي (القرن السادس قبل الميلاد) وبعده، حين تطور إحساس متزايد بـ «يوم الرب» القادم، وهو اليوم الذي كان سيشهد قيام مملكة الرب، ومكافأة الصالح ومعاقبة الطالح، وتكريم إسرائيل، بوصفها المنارة الروحية للإنسانية. هو اليوم الذي كان سيشهد تمخض عذابات الشعب المختار الحالية عن حقبة جديدة قائمة على العدل، وعلى الورع الحقيقي، وعلى تجلي مجد الرب الكامل وانعكاسه على العالم. فبعد قرون من العناء والهزائم كانت شخصية مسيحية (خلاصية - هادية) ستظهر، شخصية كان التاريخ نفسه سيهتدي، عبر قوته الإلهية، إلى نهايته المظفرة. و«الأرض الموعودة» لإسرائيل، الملائى باللبن والعسل، باتت الآن موسعة لتصبح عملية قيام إسرائيل بجلب مملكة الرب إلى الإنسانية كلها، هذا الإيمان، هذا الأمل في المستقبل، هذا الحافز التاريخي الفريد الذي رفع لواءه حشد من الأنبياء والمسجل على نحو مقنع وملزم في شعر الكتاب المقدس ونثره، هو الذي ضمن بقاء الشعب اليهودي واستمراره مدة ألفي عام.



حين بدأ يسوع الناصري كهانته، بدأها في أجواء ثقافية يهودية مشحونة بفيض من توقعات مجيء مسيح مخلص وحل رؤيوي كارثي لعقدة التاريخ، في ظل فيض توقعات كان قد بلغ حدوده القصوى. ومثل هذا السياق أضفى ثقلاً درامياً استثنائياً على

مبادرة يسوع إلى تبشير إخوته الجليلين بأن الزمن كان، في شخصه هو، قد وصل، أخيراً، إلى محطة تحقق النبوءات التوراتية: (باتت مملكة الرب في متناول اليد). غير أن تعاليم يسوع عن المملكة الوشيكة، ولا التوقعات الأخروية المثارة من قبل وعاظ جوالين مثل: يوحنا المعمدان هي التي ألهمت بالدين الجديد.

ومهما يكن أساس ذلك الإيمان - ذلك الاعتقاد الراسخ الذي تتعذر المبالغة بمدى رسوخه - فإن ما كان سيبدو واضحاً هو أن أتباع يسوع كانوا قد حققوا، بسرعة وشمول لافتين، إعادة صياغة لعقيدتهم الدينية التي قامت بتفجير سلسلة من الافتراضات القديمة وإطلاق فهم جديد للرب والإنسانية.

وهذه الرؤية الجديدة انبثقت بعيد الصلب من رحم سلسلة من تجارب الوحي التي أقتعت عدداً من أتباع يسوع بأن معلمهم قد عاد إلى الحياة، وقد قام. وهذه «التجليات» ما لبثت، وقد تعززت، لاحقاً، بتجربة بولس الرؤيوية عن المسيح الذي قام، أن أقتعت التلاميذ بأن يسوع كان، بمعنى من المعاني، قد تمت استعادته كلياً بفعل قدرة الرب. باتت النبوءات التوراتية اليهودية قابلة للفهم على نحو صحيح الآن: لم يكن المسيح ملكاً أرضياً؛ إنه ملك روحي؛ ومملكة الرب لم تكن انتصاراً لإسرائيل، بل إنقاذاً إلهياً للإنسانية، إنقاذاً جالباً لحياة جديدة مشبعة بروح الرب. وهكذا، فإن الحدث المخيب بمرارة لصلب زعيمهم شهد انقلاباً عجائبياً في عقول تلاميذه، إذ تحول إلى قاعدة راسخة وإيمان دون حدود واضحة بعملية خلاص نهائية للبشرية، وإلى حافز استثنائي الفاعلية للتبشير بذلك الإيمان.

كان يسوع قد تحدى أشقاءه اليهود طالباً منهم التسليم بفاعلية الرب الإنقاذية في التاريخ، وهي فاعلية ظاهرة بوضوح في شخصه وكهنته. وهكذا فإن المسيحية زعمت أنها عبارة عن تحقق الآمال اليهودية: وفي مفارقة قائمة على المزاوجة بين الخطي والسرمدى أعلنت المسيحية حضور المسيح في العالم حضوراً لمستقبل الرب الموعود. أما مملكة الرب فكانت قد باتت حاضرة، ولكنها بقيت مع ذلك في حالة بزوغ، ليكتمل إنجازها مع انتهاء التاريخ عند عودة المسيح المظفرة. صحيح أن العالم

كان قد تصالح مع نفسه في المسيح، ولكنه لم يكن بعد قد تم استكمال إنقاذه. ومن هنا، فإن المسيحية توجت الأمل اليهودي من ناحية، ولكنها ظلت أيضاً مصرّة على استئناف أمل بانتصار روجي كوني في المستقبل القريب، حين سينبثق خلق جديد وإنسانية جديدة مستمتعة بنعمة حضور الرب الطليق دونما عوائق، من ناحية ثانية.

تماماً مثلما وفر الخروج الأساس التاريخي للأمل اليهودي بيوم الرب المستقبلي، تمخض بعث المسيح وعودته إلى الرب عن توفير أساس الأمل المسيحي ببعث البشرية وعودتها إلى الرب في المستقبل. وتماماً مثلما نجح الكتاب المقدس (العهد القديم) اليهودي بكشفه عن شريعة الرب ووعوده، متناقضاً مع تاريخ شعبه، في إدامة اليهود عبر القرون وشحن حيواتهم بمبادئه وآماله، فإن الأساس الداعم للديانة الجديدة وتقاليدها أصبح متمثلاً في الإنجيل المسيحي، مع «عهد جديد» ألحق بـ «العهد القديم» (الإنجيل اليهودي). أما الكنيسة فكانت إسرائيل الجديدة. والمسيح كان هو العهد أو الميثاق الجديد. وهكذا فإن طابع العصر الجديد الذي أقبل مع المسيحية كان ممهوراً بالطابع اللاهيني كلياً لأمة إسرائيل الصغيرة.

بين سائر الصفات المميزة للديانة الجديدة، كانت ادعاءات المسيحية الزاعمة بامتلاك صفتي الشمول والتحقق التاريخي محورية، وهي ادعاءات مستمدة من اليهودية. فالإله اليهودي -المسيحي لم يكن إلهاً قبلياً أو مديناً واحداً بين حشد من الآلهة، بل كان الرب الأعلى الحقيقي الوحيد، صانع الكون، سيد التاريخ، ملك الملوك كلي القدرة وكلي المعرفة الذي تستحق حقيقته وقدرته اللتان لا نظير لهما، وبجدارة، ولاء جميع الأمم والبشرية كلها. في تاريخ إسرائيل، كان ذلك الرب قد دخل العالم على نحو حاسم، قال كلمته عبر الأنبياء، ودعا الإنسانية إلى مصيرها السماوي المقدس: كان من شأن ما يخرج من رحم إسرائيل أن ينطوي على أهمية ذات علاقة بتاريخ العالم. وبالنسبة إلى الأعداد المتزايدة بسرعة من المسيحيين الدائنين على نشر رسالتهم في طول الأمبراطورية الرومانية وعرضها، فإن المسيحية هي التي خرجت من رحم إسرائيل.

العناصر الكلاسيكية والموروث الأفلاطوني

نظراً لطبيعة العقيدة المسيحية الفريدة ورسالتها الأساسية، فقد انتشرت بصورة مذهلة من نواتها الجليلية الصغيرة، وصولاً إلى الإحاطة بالعالم الغربي. ففي غضون جيل واحد بعد موت يسوع، كان أتباعه قد قاموا بصياغة تركيبة دينية وفكرية داخل إطار عقيدتهم الجديدة التي قامت ليس فقط بإلهام كثيرين بالمبادرة إلى تنفيذ المهمة الصعبة في الغالب، مهمة إيصال تلك العقيدة إلى البيئة الوثنية المحيطة، بل وكانت أيضاً قادرة على مقاربة جملة التطلعات الدينية والفلسفية لأمبراطورية عالمية مدنية متطورة والعمل لاحقاً على تحقيقها. ومع ذلك، فإن التصور الذاتي للمسيحية بوصفها ديانة عالمية تيسر كثيراً جراء علاقتها بالعالم الهلينيستي الأوسع. ومع أن ادعاء المسيحية للكونية الدينية ذو جذور يهودية، فإن كونيتها الفاعلة - نجاحها في التبشير - من جهة وكونيتها الفلسفية من جهة ثانية، كانتا مدينتين بأشياء كثيرة لمكان ولادتها الإغريقي - الروماني. في نظر قدماء المسيحيين لم يكن تجسد الإله في اللحظة التاريخية التي شهدت تقاطع الديانة اليهودية، والفلسفة اليونانية، والأمبراطورية الرومانية مصادفة.

من اللافت أن الأكثر قرباً من يسوع لم يكونوا يهود الجليل، بل بولس، ذلك المواطن الروماني ذو الخلفية الثقافية اليونانية الذي قام، عملياً، بتوجيه المسيحية إلى رسالتها الكونية. وعلى الرغم من أن جميع أوائل المسيحيين كانوا افتراضياً، من اليهود، فإن حفنة صغيرة فقط من اليهود ما لبثوا أن أصبحوا مسيحيين. على المدى الطويل نجح الدين الجديد في خطب ود قطاعات أوسع من أبناء العالم الهلينيستي الأوسع¹⁷. صحيح أن اليهود كانوا قد انتظروا مسيحاً منذ أمد طويل، غير أنهم ظلوا يتوقعون ظهور إما عاهلاً سياسياً، مثل ملكهم القديم داود، الذي كان سيؤكد سيادة إسرائيل في العالم، أو أميراً روحياً صريحاً - «ابن إنسان» - كان سيصل نازلاً من السماوات في هالة مجد ملائكية عند آخر الزمن الدرامي المثير. لم يتوقعوا ذلك اليسوع اللاسياسي، اللاكفاحي، الإنساني الواضح، المعاني والمحتضر. يضاف إلى ذلك أن الدين اليهودي كان بطبعه، على الرغم من أن اليهود كانوا يدركون أن من شأن دينهم أن ينطوي على عواقب ذات شأن بالنسبة إلى البشرية كلها، قومياً وانعزالياً، متمركزاً، على نحوٍ شبه كامل، على شعب إسرائيل، وهي روح استمرت لدى أولئك

اليهود المسيحيين الأوائل في القدس ممن عارضوا الاستيعاب الكامل لغير اليهود في جماعة العقيدة إلى حين إيقاظ إسرائيل كلها. وفي حين أن مسيحيي القدس، تحت قيادة يعقوب وبطرس، استمروا لبعض الوقت يطالبون بمراعاة القواعد اليهودية التقليدية التي تحظر أكل المشاع، بما يحصر الدين الجديد في الإطار اليهودي، أكد بولس، وسط معارضة شديدة، أن الحرية الجديدة مع التطلع المسيحي إلى الخلاص كانت قد أصبحت حاضرة كونياً، بالنسبة لغيرهم من خارج الناموس اليهودي، جنباً إلى جنب مع اليهود في إطار هذا الناموس. البشرية كلها بحاجة إلى المنقذ أو المخلص الإلهي، وهي قادرة على تبنيه واحتضانه. في ذلك السجال العقدي الأصولي الأول داخل الكنيسة، كانت نزعة بولس الكونية هي التي انتصرت على النزعة الإقصائية اليهودية، انتصاراً ترافق مع سلسلة طويلة من الارتدادات والأصداء بالنسبة إلى العالم الكلاسيكي.

إن امتناع الجزء الأكبر من اليهود عن تبني الوحي المسيحي، ونجاح رد فعل بولس - الذي غرس المسيحية في قلوب الأعراب من غير اليهود - تضافراً مع فيض من الأحداث السياسية لتحويل مركز ثقل الدين الجديد من فلسطين إلى العالم الهلنستي الأوسع. فبعد يسوع تابعت الحركات الثورية السياسية المسيحية (المهدوية) بقيادة حزب الغلاة نضالها بين صفوف اليهود ضد الرومان، واصلت إلى ذروة حاسمة بعد جيل واحد في انتفاضة فلسطينية واسعة الانتشار، وفي الحرب التي أعقبت الانتفاضة، نجحت جيوش روما في سحق التمرد، وفي الاستيلاء على القدس، وفي تدمير الهيكل اليهودي عام 70 م. تعرضت الطائفة المسيحية في القدس وفلسطين للتشريد والبعثرة، كما تعرضت العلاقة الأوثق بين الدين المسيحي واليهودية - تلك العلاقة التي كان مسيحيو القدس يصونونها ويرمزون إليها - للبت. وبعد ذلك أصبحت المسيحية ظاهرة هلنستية أكثر منها فلسطينية.

لا بد أيضاً من ملاحظة أن الثقافة اليونانية - الرومانية، مقارنة باليهودية، كانت من نواحٍ عديدة أكثر بعداً عن الطائفية، وقرباً من الكونية والشمول على صعيدي ممارستها ورؤيتها على نحو متسق. فالإمبراطورية الرومانية وقوانينها تعالت على

سائر القوميات والحدود السياسية السابقة، مانحة المواطنة والحقوق لجميع الشعوب المهزومة، كما فعلت بالنسبة إلى الرومان. وقد نجح العصر الهلينيستي، بمراكزه الحضرية العظيمة، إضافةً إلى التجارة والترحال، في ربط العالم المتمدن ربطاً غير مسبوق. والمثل الرواقي الأعلى لأخوة البشرية والمدينة الكونية (الكوزموبوليس)، أو المدينة العالمية شكل تأكيداً لحقيقة أن جميع البشر أبناء أحرار ومتساوون للرب. أما **اللوغوس الكوني** للفلسفة اليونانية، فقد تعالَى على جميع التناقضات والنواقص الظاهرة، حيث عقل السماء حاكم للإنسانية كلها مع الكون (الكوزموس) ولكنه كامن مع ذلك في عقل الإنسان وفي تناول أي فرد مهما كانت أمته أو شعبه بالقوة. إلا أن ديانة مسيحية كونية ذات أبعاد عالمية لم تصبح ممكنة إلا بفضل الوجود المسبق للأمبراطوريتين الإسكندرية والرومانية في المقام الأول، الأمبراطوريتين اللتين لولاهما لبقيت الأوطان والشعوب المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ممزقة إلى كتلة هائلة من الثقافات العرقية ذوات الوضعيات اللغوية، والسياسية، والكوزمولوجية شديدة التباين والافتراق. وعلى الرغم من الخصومة المفهومة التي كان عدد كبير من أوائل المسيحيين يحسون بها تجاه حكام روما، فإن **عصر السلام الروماني (الباكس روماننا)** هو الذي وفر حرية الحركة والتواصل التي كانت ضرورية بالنسبة إلى نشر العقيدة المسيحية. فمن بولس، مع بداية المسيحية، إلى أوغسطين، أكثر أبطال المسيحية تأثيراً ونفوذاً عند نهاية الحقبة الكلاسيكية، تعرضت شخصية الديانة الجديدة وتطلعاتها لقدرٍ حاسم من القبولية بفعل سياقتها الإغريقية - الرومانية.

تتطبق هذه الاعتبارات ليس فقط على الجانب العملي من نشر المسيحية، بل وعلى النظرة المسيحية المتطورة والمركبة إلى العالم، وقد باتت مهيمنة على العقل الغربي. وعلى الرغم من أن النظرة المسيحية قد تبدو بنية إيمانية مستقلة وتوحيدية، فإن بوسعنا، على نحوٍ أكثر دقة، أن نميز لا اتجاهات متعارضة مع الكل وحسب، بل واستمرارية تاريخية مع جملة التصورات الميتافيزيقية (الماورائية) والدينية لدى العالم الكلاسيكي. صحيح أن تعددية الثقافة الهلينيستية وتوفيقيتها، هذه الثقافة ذات المدارس الفلسفية المتداخلة وأديانها القائمة على تعدد الآلهة، جرى إبدالهما، مع صعود المسيحية، بتوحيدية إقصائية مستمدة من التراث اليهودي. صحيح أيضاً أن

اللاهوت المسيحي دأب على فرض الوحي التوراتي أو الإنجيلي، بوصفه حقيقة مطلقة، وعلى مطالبة جميع التأمّلات والتخمينات الفلسفية بالامتثال الصارم للكنيسة، غير أن النظرة المسيحية إلى العالم كانت، داخل هذه الحدود، كثيفة الاغتناء بسابقتها الكلاسيكيات. لم يقف الأمر عند وجود أوجه شبه بالغة الحساسية بين مبادئ المسيحية وطقوسها ونظيرتها لدى الديانات السرية، بل وقد كان يجري، إضافة إلى ذلك، ومع مرور الزمن، استيعاب أوسع عناصر الفلسفة الهلينية اطلاقاً من قبل العقيدة المسيحية، مع تمكينهم من ممارسة تأثيرهم عليها. لا شك في أن المسيحية بدأت وانتصرت في الأمبراطورية الرومانية، لا بوصفها فلسفة بل بوصفها ديناً - شرقياً ويهودياً من حيث الطابع، مشاعياً بقوة، خلاصياً، عاطفياً، صوفياً، معتمداً على بيانات إيمانية وعقيدة مستلهمة من الوحي، وعلى الاستقلال عن العقلانية الهلينية. ومع ذلك، فإن المسيحية سرعان ما اكتشفت أن الفلسفة اليونانية لم تكن مجرد منظمة فكرية وثنية غريبة مضطرة للاشتباك معها، بل بدت لعدد غير قليل من علماء اللاهوت المسيحيين نسيجاً إلهياً، مسبق التنظيم، صالحاً لتفسير العقيدة المسيحية تفسيراً عقلائياً.

تمثل جوهر لاهوت بولس في إيمانه بأن يسوع لم يكن إنساناً عادياً، بل كان هو المسيح الذي تجسد، بوصفه يسوع الإنسان؛ ليخلص البشرية ويوصل التاريخ إلى غايته المجيدة. في رؤية بولس، تتولى حكمة الرب حكم التاريخ كله بطريقة مخفية، ولكنها ما لبثت أن تجلت في المسيح، الذي صالح العالم مع السماء. ما من شيء إلا وهو موجود في المسيح الذي هو مبدأ الحكمة الإلهية بالذات. لم يكن المسيح سوى الأنموذج الأصلي للخلق كله، للخلق الذي حدا حذوه، واندمج فيه، واهتدى إلى معناه المظفر في تجسده وقيامته. وهكذا، فإن المسيحية باتت ترى مجمل حركة التاريخ الإنساني، بما فيه سائر نضالاته الدينية والفلسفية، خطة سماوية متجلية متحققة بمجيء المسيح.

إن ملاحظة أوجه الشبه بين هذا التصور للمسيح ونظيره في اللوغوس اليوناني لم تفت المسيحيين الهلنستيين. فالفيلسوف اليهودي المعروف فيلو الإسكندري، وهو معاصر أكبر سنناً لیسوع وبولس، كان قد صاغ تركيبة يهودية - إغريقية متمحورة

على عبارة «اللوغوس»¹⁸، إلا أن علاقة المسيحية بالفلسفة اليونانية لم تبدأ بفاعلية إلا مع الكلمات التمهيدية للكتاب المقدس حسب يوحنا: «في البدء كان اللوغوس». وبعيد ذلك بدأت عملية اندماج غير عادية بين الفكر اليوناني واللاهوت المسيحي، وتواصلت متمخضة آخر المطاف عن حصول تغيير في هذا وتلك.

في مواجهة حقيقية الوجود المسبق في الثقافة المتوسطية الأوسع تراثاً فلسفياً متطوراً أوجده اليونانيون، سرعان ما تبهت الطبقة المثقفة من أوائل المسيحيين إلى ضرورة إدخال ذلك التراث في عقيدتهم الدينية. وعملية الاستيعاب هذه تمت مواصلتها إرضاء لهم هم من جهة ومساعدة للثقافة الإغريقية - الرومانية على فهم اللفظ المسيحي من جهة ثانية. غير أن الأمر لم ينظر إليه على أنه زواج مصلحة؛ لأن الفلسفة الأفلاطونية ذات الأصداء الروحانية لم تكثف بالتناغم مع التصورات المسيحية المستمدة من آيات وحي العهد الجديد، بل تجاوزت ذلك إلى تطوير تلك التصورات وتعزيزها فكرياً. ثمة مبادئ أفلاطونية أساسية اهتمت الآن إلى ما يؤيدها، وإلى معنى جديد في السياق المسيحي؛ وجود حقيقة متعالية لكمال سرمدي، سيادة حكمة السماء في الكون، أولوية الروحي على المادي، التأكيد السقراطي على «رعاية الروح»، خلود الروح والضرورات الأخلاقية العليا، حصولها على عدالة السماء بعد الموت، أهمية المعاينة الذاتية المدققة، النصح بضبط العواطف والشهوات؛ خدمة للخير والحق، المبدأ الأخلاقي الذي يقول: إن من الأفضل التعرض للظلم بدلاً من ممارسته، الإيمان بأن الموت إن هو إلا معبر إلى حياة أكثر وفرة، وجود شرط قبلي لمعرفة إلهية محجوبة الآن بسبب حالة الإنسان الطبيعية المحدودة، فكرة الانخراط في الأنموذج الأصلي السماوي، الذوبان التدريجي في بوتقة الرب، بوصفه هدف طموحات الإنسان. ومع أن لها جذوراً كلية الاختلاف عن الديانة اليهودية - المسيحية، فإن التراث الأفلاطوني كان، في نظر عدد كبير من أوائل المثقفين المسيحيين، تعبيراً صادقاً عن الحكمة السماوية، القادرة على إضفاء رؤى ميتافيزيقية على بعض أكثر الألفاظ المسيحية عمقاً. ومع نضج الثقافة المسيحية خلال عدد من قرونها الأولى، تطور فكرها الديني إلى لاهوت منهجي، ومع أن ذلك اللاهوت كان يهودياً - مسيحياً من حيث المضمون، فإن بنيته الميتافيزيقية كانت أفلاطونية إلى حد كبير. ومثل هذه المزاجية تمت على أيدي كبار لاهوتيين الكنيسة الأولى - على

أيدي الشهيد جوستين أولاً، كلمنت الإسكندري وأوريغن، على نحوٍ أكمل، بعد ذلك، وأوغسطين أخيراً، على نحو قمة في الكمال.

بدورها عُدت المسيحية تتويجاً للفلسفة، والكتاب المقدس أساساً للاجتماع العظيم بين الهلينية واليهودية. فالإعلان المسيحي أن اللوغوس، عقل العالم بالذات، كان بالفعل قد تقمص شكل الإنسان في شخص يسوع المسيح التاريخي، وأثار اهتماماً واسعاً في عالم الثقافة الهلينية. وعبر فهمهم للمسيح بوصفه لوغوساً متجسداً، قام أوائل اللاهوتيين المسيحيين بالمزاوجة بين العقيدة الفلسفية الإغريقية القائلة بعقلانية العالم السماوية القابلة للفهم من جهة والعقيدة الدينية اليهودية القائلة بعالم الرب الإبداعي، المتجلي عن إرادة الرب السماوية والمضفي على تاريخ الإنسان معناه الخلاصي. ففي المسيح، أصبح اللوغوس إنساناً: أصبح التاريخي والأزلي، المطلق والشخصي واحداً. ومن خلال فعله الإنقاذي، مكّن المسيح الروح من الوصول إلى الحقيقة المتعالية ولبي، من ثم مطلب الفيلسوف الأقصى. وبعبارات شديدة التذكير بالأفلاطونية بأفكارها المتعالية راح اللاهوتيون المسيحيون يبشرون بأن اكتشاف المسيح إن هو إلا اكتشاف حقيقة الكون وحقيقة وجود المرء الخاص في إشراق أحادي واحد.

بدأت البنية الفلسفية الأفلاطونية الجديدة، المتطورة تتزامن جنباً إلى جنب مع اللاهوت المسيحي المبكر في الإسكندرية، مقدّمة لغة ميتافيزيقية استثنائية الملاءمة لتحقيق فهم أفضل للرؤية اليهودية المسيحية. ففي الأفلاطونية الجديدة كان كبير الآلهة، الواحد، المتعالي غير القابل للوصف، قد طرح صورته الصريحة -النوس الإلهي أو العقل الكوني- وروح العالم. أما في المسيحية فإن الأب المتعالي كان قد طرح صورته الصريحة -الابن أو اللوغوس- وروح القدس. غير أن المسيحية أضفت الآن تاريخية ديناميكية على التصور الهليني، إذ أكدت أن اللوغوس، الحقيقة الأزلية الحاضرة منذ خلق العالم، كان قد أدخل في تاريخ العالم على شكل إنساني لإعادة ذلك الخلق، عبر الروح، إلى جوهره السماوي المقدس. في المسيح تمت إعادة توحيد السماء والأرض، وتمت المصالحة بين الواحد والكثرة. وإن صعود الفيلسوف الروحي

الخاص بات الآن، عبر تجسد اللوغوس، المصير التاريخي لمجمل الخلق. من شأن الكلمة أن توقظ البشرية كلها، وعبر الإقامة في الروح القدس كان من شأن عودة العالم إلى الواحد أن تحصل، ذلك النور الأعلى، المنبع الحقيقي للحقيقة المتدفق خارج كهف ظلال أفلاطون، بات الآن ينظر إليه على أنه المسيح. فقد أعلن كلمنت الإسكندري: (باللوغوس، صار العالم كله الآن أثينا واليونان).

من اللافت فيما يخص هذه الحميمية بين الأفلاطونية والمسيحية أن أفلوطين وأوريفن، المفكرين المركزيين للمدرسة الأخيرة في الفلسفة الوثنية والمدرسة الأولى للفلسفة المسيحية، على التوالي، تتلمذا على المعلم نفسه في الإسكندرية، على أمونيوس كاكاس (شخصية لغز يكاد لا يُعرف عنها شيء). كانت فلسفة أفلوطين بدورها عنصراً محورياً في اهتداء أوغسطين التدريجي إلى المسيحية، وهذا الأخير كان يرى أفلوطين شخصاً «عاد فيه أفلاطون حياً» ويعد فكر أفلاطون «الأنقى والأسطع في الفلسفة كلها»، شديد العمق إلى التطابق شبه الكامل مع العقيدة المسيحية. وهكذا، فإن أوغسطين كان يرى أن الأشكال أو المثل الأفلاطونية موجودة في عقل الرب الإبداعي، وأن أساس الحقيقة كامن وراء عالم الحواس، و متاح فقط عبر تحول جذري للروح إلى الداخل. وبرغم مسيحيتها لم تكن عبارة أوغسطين الأنموذجية الأصلية: «الفيلسوف الحق هو عاشق الرب» أقل أفلاطونية. وصياغة أوغسطين للأفلاطونية المسيحية كانت، افتراضياً، ستطغى على كل فكر القرون الوسطى المسيحي في الغرب. واستيعاب المسيحية للروح اليونانية كان حماسياً جداً إلى درجة أن سقراط وأفلاطون كثيراً ما عُدا قديسين ملهمين مما قبل المسيحية، ناقلين للوغوس المقدس الموجود في العصور الوثنية - «مسيحيين قبل المسيح» كما زعم جوستين. وفي الأيقونات المسيحية القديمة، جرى تصوير سقراط وأفلاطون بين الذين جرى إنقاذهم ممن انتشلهم المسيح من العالم السفلي بعد إغارته على هاديس (عالم الأموات). بحد ذاتها ربما كانت الثقافة الكلاسيكية محدودة وزائلة، غير أنها من وجهة النظر هذه كانت تولد من جديد عبر المسيحية، موهوبة حياة ومعنى جديدين. وهكذا، فإن كلمنت أعلن أن الفلسفة كانت قد هيأت اليونانيين لاستقبال المسيح، تماماً مثلما كان الناموس قد أعد لليهود.

مهما تكن هذه العلاقة مع الفكر الأفلاطوني راسخة، فإن الزخم الأساسي

للمسيحية مستمد من أساسه اليهودي. فعلى النقيض من موازنة اليونانيين اللازمية لعدد كبير من الكيانات الأنموذجية الأصلية ذات المواصفات والميادين المختلفة، تمخضت التوحيدية اليهودية عن إضفاء إحساس استثنائي القوة بالسماء، بوصفه كياناً شخصياً أعلى ذا خطة تاريخية محددة لإنقاذ البشرية. فالله يفعل في التاريخ ومن خلاله بهدف وتوجه محددين. وبالمقارنة مع اليونانيين، دأبت اليهودية على تكثيف وتشديد الإحساس بالقدس أو الديني، معتبرة إياه فائضاً من الإله الأوحد، كلي القوة الذي هو الخالق والمخلص. وعلى الرغم من أن الديانة التوحيدية كانت موجودة دون شك في عدد من التصورات الأفلاطونية المختلفة للرب -العقل الكوني، القوة الخلاقة، المثل الأعلى للخير، وخصوصاً الواحد الأفلاطوني الجديد الأعلى- فإن رب موسى، حسب إقراره هو نفسه، كان فريداً تفرّداً لا جدال حوله في ألوهيته، كما كان أكثر شخصانية في علاقته مع البشر، وأكثر تحرراً في نشاطه في تاريخ الإنسان، مقارنة بالمطلق الأفلاطوني المتعالي. وعلى الرغم من أن سيرة النبي والعودة اليهودية منطوية على وجه شبه مدهش بالعقيدة الأفلاطونية الجديدة حول خروج الكون (الكوزموس) من الواحد وعودته إليه، فإن الأول تمتع بملموسية تاريخية مشهودة مشاعياً، وبحماسة عاطفية مكرسة طقسياً لم تكن من ميزات مقاربة الثانية الأكثر باطنية، فكرية، وفردية.

في حين أن الإحساس الهليني بالتاريخ كان دورانياً، إذ بقي نظيره اليهودي خطياً وتقدماً على نحو حاسم، بقي ذلك التحقق التدريجي لخطة الرب بالنسبة إلى الإنسان عبر الزمن¹⁹. وفي حين أن الفكر الديني الهليني كان ميالاً إلى التجريد وتحليلياً، فإن النمط اليهودي كان أكثر ملموسية، ديناميكية، وقطعاً. وحيثما كان التصور اليوناني للرب مستنداً إلى فكرة ذكاء أعلى حاكم، قام التصور اليهودي على تأكيد فكرة إرادة عليا حاكمة. فجوهر العقيدة اليهودية مستند إلى توقع ملتهب لاحتمال قيام الرب بالمبادرة الفاعلة إلى تجديد سيادته على العالم في عملية تحويل مسرحية مثيرة لتاريخ الإنسان. ومع مجيء زمن يسوع تركز هذا التوقع على ظهور مسيح شخصي. نجحت المسيحية في الجمع بين التراثين عبر الإعلان، عملياً، عن أن الحقيقة السماوية العليا والصادقة - حقيقة الرب الأب والخالق، المتعالي الأفلاطوني

السرمدى - كانت قد توغلت في العالم الناقص والمحدود للطبيعة وتاريخ الإنسان عبر تجسيد يسوع المسيح، لحمًا ودمًا، اللوغوس، الذي كانت حياته وموته قد أطلقا عملية إعادة توحيد تحريرية للملكوتين المنفصلين من قبل - المتعالي والأرضي، الإلهي والإنساني، وصولاً إلى ميلاد جديد للكون (الكوزموس) عبر الإنسان. فخالق العالم واللوغوس كانا قد اخترقا التاريخ من جديد بقوة إبداع وخلق متجددة، مدشنين نوعاً من المصالحة الكونية الشاملة. في عملية الانتقال من الفلسفة اليونانية إلى اللاهوت المسيحي، تم جعل المتعالي جوهرًا أصلياً، والأبدي تاريخياً، وتاريخ الإنسان نفسه بات الآن ذا مغزى روحي: «صار اللوغوس لحمًا يعيش بيننا».

هداية العقل الوثني

على امتداد الحقبة الهلنستية، كانت حتى الثقافة اليهودية قد اخترقت بتأثيرات هلينية. فالانتشار الجغرافي الواسع للجاليات اليهودية عبر الأمبراطورية المتوسطة كان قد سرّع هذا التأثير، المنعكس في أدبيات دينية يهودية لاحقة، مثل كتب الحكمة، في السبعونية، كما في الدراسات التوراتية في الإسكندرية، إضافة إلى الفلسفة الدينية الأفلاطونية لفيلو. غير أن الحافظ اليهودي ما لبث بدوره، مع ظهور المسيحية، وخصوصاً مع تولي بولس رسالة نشر إنجيلها فيما وراء حدود اليهودية، أن أطلق حركة معارضة أحدثت انقلاباً جذرياً في المساهمة الهلينية في النظرة المسيحية إلى العالم المنبثقة في القرون المتأخرة من الحقبة الكلاسيكية. فالتيارات القوية في الميتافيزيقا، الأبستمولوجيا (علم المعرفة) والعلوم اليونانية، جملة المواقف اليونانية المميزة من الأسطورة، من الدين، ومن الفلسفة، ومن تحقيق الذات -تمت إعادة صياغتها جميعاً في ضوء آيات الوحي اليهودي- المسيحي.

تعرضت مكانة الأفكار المتعالية، المركزية جداً في التراث الأفلاطوني والتمتعة بتقدير واسع لدى المتقنين الوثنيين، لقدراً لافت من التغيير. صحيح أن أوغسطين اتفق مع أفلاطون على أن الأفكار تؤلف الأشكال الراسخة وغير القابلة للتغيير لجميع الأشياء، وتوفر أساساً معرفياً متيناً للمعرفة الإنسانية، غير أنه أشار إلى أن أفلاطون مفتقر إلى عقيدة خلق مناسبة لتفسير مشاركة الخصوصيات في الأفكار.

(فخالق أفلاطون، الديميورج (Demiurge) التيمياوسي، لم يكن كائناً أعلى كلي القوة؛ لأن عالم الصيرورة الفوضوي الذي فرض عليه أفكاره كان موجوداً سلفاً مثله مثل الأفكار نفسها؛ كما لم يكن كلي القدرة في مواجهة الأنانكه (Ananké) (كوكب المشتري) السبب الخاطئ. لذا فإن أوغسطين جادل أن من شأن تصور أفلاطون الميتافيزيقي أن يتحقق عبر الوحي اليهودي - المسيحي الصادر عن الخالق الأعلى، الراغب بحرية في خلق الوجود من العدم، والذي لا يفعل ذلك إلا وفق الأنماط النازمة الأساسية التي رسختها الأفكار الأزلية الكامنة في العقل الإلهي. رأى أوغسطين الأفكار بوصفها التعبير الجماعي لكلمة الرب، لثوغوس، ونظر إلى سائر النماذج الأصلية، بوصفها متضمنة، ومعبرة عن كينونة المسيح. بدا التشديد هنا على الرب وخلق أكثر منه على الأفكار وتقليدها الملموس، مع قيام الإطار الأول باستخدام الإطار الثاني واستيعابه، كما قامت المسيحية، عموماً، باستخدام الأفلاطونية واستيعابها إلى حد كبير.

إلى هذا التصحيح الميتافيزيقي لأفلاطون، أضاف أوغسطين تعديلاً أستمولوجياً (معرفياً). كان أفلاطون قد أسند المعرفة الإنسانية كلها إلى مصدرين، الأول: مستمد من تجربة الحواس، وهي لا يعول عليها، والثاني: مستمد من الإدراك المباشر للأفكار الأبدية، التي تكون معرفتها كامنة ولكنها منسية وتتطلب الاستحضار، والتي توفر المصدر الوحيد للمعرفة المؤكدة. وافق أوغسطين على هذه الصياغة، مؤكداً أن ليس بوسع الإنسان امتلاك أفكار ذهنية منبثقة في عقله، دون أن تكون مضاءة من قبل الرب، كما لو من شمس روحية داخلية. وهكذا فإن معلم الروح الحقيقي الوحيد هو معلم داخلي، وهو الرب. غير أن أوغسطين أضاف مصدراً آخر إلى مصدري المعرفة الإنسانية - الوحي المسيحي - مصدراً فرضه سقوط الإنسان من السماء وأعادته إليه مجيء المسيح. وهذه الحقيقة، المتجلية في وصايا الإنجيل والواردة في تراث الكنيسة، أكملت الفلسفة الأفلاطونية تماماً، كما أكملت الناموس اليهودي، تمهيداً، في الحالتين، للنظام الجديد.

على الرغم من أن أفلاطونية أوغسطين كانت محددة نظرياً، فإن توحيدية

المسيحية المتشددة على الصعيد العملي أدت إلى اختزال المغزى الميتافيزيقي للأفكار الأفلاطونية. فعلاقة مباشرة مع الرب مستندة إلى الحب والإيمان أكثر أهمية من أي اشتباك فكري مع الأفكار. وأي حقيقة محصلة عبر الأفكار متوقفة على الرب مما يبقها أقل شأناً في الخارطة المسيحية للأشياء. فاللوغوس المسيحي، الكلمة الفاعلة -الخالقة، الأمرة، الملهمة، المنقذة- تحكم الجميع. وحقيقة تعددية النماذج الأصلية تعارضت هي الأخرى مع فكرة اضطلاعها بدور رئيس في حقيقة المسيحية الأحادية الروحية عموماً. يضاف إلى ذلك أن عقيدة الأفلاطونية الجديدة القائمة على القول بنوع من التراتبية في الوجود، حيث الواقع متراصف على مستويات متضائلة القداسة بالتتابع، جوبهت بنواح معينة من الوحي البدائي المسيحي (الموروثة عن القرن الميلادي الأول)، تلك النواحي المؤكدة لنوع من التوحيد والتقدس الأساسيين للخلق كله، لنوع من الانفجار الديمقراطي لسائر المقولات والتراثيات السابقة. بالمقابل، ثمة عناصر أخرى في التراث اليهودي - المسيحي أكدت الثنائية المطلقة بين الرب وخلقه، تلك الثنائية التي حاولت الأفلاطونية الجديدة تعديلها لمصلحة قيام الواحد بإطلاق فيض القداسة عبر مستويات وسيطة -مثل الأفكار- لغمر الكون (الكوزموس) كله. لعل الأهم، برغم كل ذلك، هو أن الوحي الإنجيلي وفر حقيقة أقرب منالاً وأيسر على الفهم بالنسبة إلى كتلة المؤمنين المسيحيين مقارنةً بأي نقاشات فلسفية حصرية حول الأفكار الأفلاطونية.

غير أن لاهوتية المسيحية واضبوا، مع ذلك، على استخدام نمط التفكير الأنموذجي الأصلي في العديد من أكثر عقائد الديانة المسيحية أهمية: مشاركة البشرية كلها في خطيئة آدم، الأمر الذي شكل، على هذا النحو، الأنموذج الأصلي الأول للإنسان غير المفتدى؛ آلام المسيح، بوصفها شاملة لمجمل المعاناة الإنسانية، متمخضة، عبر عمله الاقتدائي، بوصفه آدم ثانياً، عن خلاص الجميع؛ المسيح بوصفه الأنموذج الأصلي للإنسانية المثالية، مع احتمال انخراط كل روح إنسانية في الوجود الكوني للمسيح؛ الكنيسة الكونية غير المرئية، كلية الوجود في سائر الكنائس المنفردة؛ الرب الأعلى الأوحد كلي الوجود في كل من - أشخاص الثالث؛ المسيح بوصفه اللوغوس الكوني.

وثمة نماذج أصلية توراتية مثل الخروج، الشعب المختار، أرض الميعاد لم تتوقف قط عن أن تؤدي دوراً مهماً في الخيال الثقافي. وعلى الرغم من أن الأفكار الأفلاطونية لم تكن مركزية بالنسبة إلى منظومة الإيمان المسيحي، فإن العقل القديم والوسيط بقي عمومًا ميبلاً إلى التفكير من منطلق سلسلة من الأنماط، والرموز، والعموميات، وقد وفرت الأفلاطونية الإطار الأكثر إقناعاً فلسفياً لإدراك ذلك الأنموذج من التفكير. وبالفعل، فإن وجود الأفكار ومسألة واقعيتها المستقلة كانا سيفغوان موضوعي مناقشات حادة في إطار الفلسفة المدرسية اللاحقة، مناقشات كان من شأن حصائلها أن تنطوي على مضاعفات خارج حدود الفلسفة بالذات.



آلهة الوثنيين كانوا أكثر صراحة في تناقضهم مع التوحيد التوراتي، وأقوى استعداداً للاستغناء عنه. بداية تم النظر إليهم بوصفهم قوى حقيقية، وإن على شكل كائنات أدنى أشبه بالعفاريت، غير أنهم ما لبثوا أن رُفضوا كلياً وعُدوا آلهة زائفة، وحشد أصنام من صنع الخيال الوثني، لم يكن الإيمان الفاعل بهم إيماناً أعمق بالخرافات وحسب، بل وهرطقة بالغة الخطورة. إن الطقوس والألغاز القديمة كانت تشكل عقبة واسعة الانتشار أمام التبشير بالعقيدة المسيحية، وقد تمت محاربتها لذلك من قبل المدافعين عن المسيحية من منطلقات غير بعيدة عن منطلقات فلاسفة أثينا الكلاسيكيين، وإن في سياق جديد وغاية مختلفة. وكما جادل كلمنت مثقفي الإسكندرية الوثنيين، فإن العالم ليس ظاهرة أسطورية ملأى بالآلهة وأنصاف الآلهة، بل هو، بالأحرى، عالم طبيعي مدار إلهياً من قبل الرب الواحد الأعلى المكتفي ذاتياً. وبالفعل، فإن تماثيل الوثنيين المجسدة للآلهة لم تكن أكثر من أصنام منحوتة من الحجر، والأساطير مجرد حكايات خيالية عن مخلوقات شبيهة بالبشر. فقط الرب غير المرئي الواحد والوحي التوراتي الواحد كانا صادقين وصحيحين. كذلك لم تكن فلسفات ما قبل سقراط، سواء تلك العائدة لثاليس، أو تلك المعطوفة على أيميدوكليس، المؤلهة لعناصر الطبيعة أفضل حالاً من الأساطير البدائية. لا تجوز عبادة المادة؛ فالعبادة هي، بالأحرى، لصانع المادة وخالقها. الأجرام السماوية ليست

مقدسة، بل المقدس هو خالق تلك الأجرام. باتت إمكانية تحرير الإنسان من جملة الخرافات القديمة وتنويره بالضوء المقدس الحقيقي للمسيح متوافرة. بات من الممكن الآن الوقوف على حقيقة أن عشرات آلاف الأشياء المقدسة في الخيال البدائي ليست أكثر من أشياء طبيعية تم إلباسها بسذاجة أثواب قوى فوق طبيعية غير موجودة. إن البشر -لا الحيوانات أو الطيور، الأشجار أو الكواكب- هم الحَمَلة الحقيقيون للرسالة المقدسة، المختارون أنبياء للرب. فالحاكم الكوني الحقيقي ليس هو زيوس الهليني الزائف، بل الرب اليهودي المسيحي العادل الأسمى. والمسيح التاريخي، لا ديونيسوس أو أورفيوس أو ديمتر الأسطوريين، كان هو المنقذ الحقيقي. بزغ فجر المسيحية وبدد ظلام الوثنية. وقد شبه كلمنت العالم اليوناني - الروماني الوثني المتأخر بالعرفاء تيريسياس -عجوز، حكيمة، ولكنها عمياء ومحتضرة- مما حضره على التخلي عن حياته وعاداته السابقة، نبد جملة الكهانات والخرافات الوثنية، والاتحاق بركب لغز المسيح الجديد. بات مقتنعاً بأن من شأن التزامه بالرب أن يمكّنه من الرؤية من جديد، رؤية السماء بالذات، ومن أن يصبح الابن المتجدد دائماً للمسيحية.

وهكذا، فإن الآلهة القديمة ماتت في حين أن الرب الحقيقي الواحد تجلى وتمجد. غير أن سيرورة تمثّل أكثر حساسية وتمائزاً في عملية هداية الوثنيين؛ لأن عدداً كبيراً من الملامح الجوهرية للديانات السرية الوثنية ما لبثت، في أثناء إقدام العالم الهلنستي على تبني المسيحية، أن وجدت في الديانة المسيحية تعبيراً ناجحاً: الإيمان بإله مخلص جلب الخلود للإنسان بموته وقيامته، جملة أطروحات التنوير والإحياء، إطلاع المكرسين الطقسي مع جماعة المصلين على معرفة الحقائق الكونية الخلاصية، الفترة التمهيدية قبل الإطّلاع، مطالب نقاء العبادة، الصوم، صلوات الأماسي، شعائر الصباح الباكر، الولائم المقدسة، المواكب الطقسية، رحلات الحج، إضفاء أسماء جديدة على المكرسين. غير أن المسيحية المبكرة بادرت إلى إعلان المسيح مدشناً خلاص حتى العالم المادي في حين أن ديانات سرية معينة ظلت تؤكد الاستغراق الشرير للمادة الذي لا يستطيع تجاوزه سوى المكرسين. كذلك قامت المسيحية باستحداث عنصر عام وتاريخي جوهرى وإدخاله في الإطار الأسطوري: لم يكن يسوع المسيح شخصية

أسطورية، بل شخصاً تاريخياً حقق النبوءات اليهودية المسيحية (المهدوية) وأوصل الوحي الجديد إلى جمهور شامل للكون، مع احتمال صيرورة البشرية كلها جمهوراً من المكرسين الجدد، بدلاً من بقاء الأمر مقتصرًا على قلة مختارة. ما كان بالنسبة إلى الألفاظ والعجائب الوثنية عملية أسطورية غريبة - لغز الموت والقيامة - كان قد أصبح في المسيح ومن خلاله واقعاً تاريخياً، متجسداً لتراه البشرية، وتشارك فيه علناً، مع إحداث نوع من الانقلاب بمجمل حركة التاريخ. ومن وجهة النظر هذه لم تكن الأسرار الوثنية عقبه أمام نمو المسيحية بمقدار ما شكلت تربة خصبة ساعدت على ازدهارها.

غير أن المسيحية، خلافاً لديانات الأسرار، أعلنت واعترفت بها، بوصفها مصدر الخلاص الحقيقي حصرياً، مما وضع حداً لجميع الأسرار والأديان السابقة، وأبقاها وحدها واهبة المعرفة الصحيحة بالعالم وأساساً سليماً للأخلاق. مثل هذا الزعم كان حاسماً في انتصار المسيحية في المراحل الأخيرة من حياة العالم الكلاسيكي. فقط بهذه الطريقة أمكن حل جملة مخاوف الحقبة الهلنستية، بتعدد ديته الدينية والفلسفية المتصارعة، وبمدهنها الكبيرة الفارقة في فوضى تزاخم المحرومين، ومن لا جذور لهم، في بوتقة اليقينيات الجديدة. وفرت المسيحية للإنسانية وطناً كونياً، وجماعة دائمة، وطريقة حياة محددة بوضوح، مستندة جميعاً إلى ضمانة نصية ومؤسسية ذات صدقية كونية.

امتد تمثل المسيحية للأسرار والألفاظ إلى سائر الآلهة الوثنية أيضاً؛ لأن الآلهة الكلاسيكية ما لبثت، مع قيام العالم اليوناني - الروماني تدريجياً باعتناق المسيحية، أن أُدخلت، بوعي أو دونه، في التسلسل الهرمي المسيحي (كما كان سيحصل لاحقاً مع آلهة الجرمان وآلهة ثقافات أخرى اخترقها الغرب المسيحي). تم الحفاظ على طابعها ومواصفاتها ولكنها باتت الآن مفهومة ومستوعبة في السياق المسيحي، كما بالنسبة إلى شخصيات المسيح (أبولو، وبرميثيوس، مثلاً، جنباً إلى جنب مع بيرسيوس، أورفيوس، ديونيسوس، هرقل، أطلس، أدونيس، إيروس، سول، ميترا، آتيس، أوزيريس)، الرب (زيوس، كوزنوس، أورانوس، سارابيس)، العذراء مريم

(الماغنا ماتر، أفروديت، آرتيمس، هيرا، رهيا، بيرسفون، ديميتير، غايا، سيميل، إيزيس)، الروح القدس (أبولو، ديونيسوس، أورفيوس، إضافةً إلى جوانب من إلهات مثيرة)، الشيطان [إبليس] (بان، هاديس، بروميثيوس، ديونيسوس)، وجيش من الملائكة والقديسين (اختلاط المريخ مع ميكائيل كبير الملائكة، أطلس مع القديس كريستوفر). وكما انبثق الفهم الديني المسيحي من الخيال الكلاسيكي على تعدد الآلهة، فإن الجوانب المختلفة لأي إله وثني معقد منفرد جرى عطفها على جوانب موازية للتالوث، أو، في حال نسخة الظل عن أي إله وثني، على الشيطان. بات أبولو، إله الشمس المقدس، الأمير المضيء للسموات، يُرى سلفاً وثنياً للمسيح، في حين أن أبولو، جالب النور المباحث ومانح النبوءة والكهانات صار يُعد الحضور المؤكد لروح القدس. أما بروميثيوس، محرر البشرية المعاني فقد ذاب الآن في شخصية المسيح، في حين أن بروميثيوس المتعطرس التأثير على الرب ذاب في شخص إبليس (لوسيفر). وروح الحيازة النشوى المعطوفة من قَبْلُ على ديونيسوس تم إضافتها على الروح القدس، أما ديونيسوس إله الموت والبعث المنقذ والمضحى بالذات، فقد تحول الآن إلى المسيح، في حين أن ديونيسوس ذلك الإله الشيطاني للطاقة الأولية السائبة والحماسة الهائلة المجسد لجيش الغرائز الشبقية والعدائية المنفلتة بات يُنظر إليه الآن على أنه الشيطان.

جرى، إذاً، قلب الآلهة الأسطورية القديمة إلى سلسلة الشخصيات الراسخة عقدياً المؤلفة للهيكل أو المحفل المسيحي. كذلك برز تصور جديد لحقيقة الروح. فالروايات والنصوص الوصفية المتحدثة عن واقع السماء والكائنات السماوية المقدسة، تلك التي كانت أساطير في الحقبة الوثنية - قابلة للتعديل، بعيدة عن الجمود والدوغمائية، منفتحة على التجديد الخيالي والتحويل الابتكاري، خاضعة لصياغات متضاربة وتفسيرات فكرية متعددة - باتت الآن مفهوماً بامتياز على أنها حقائق تاريخية وحرفية مطلقة، وقد تم بذل كل الجهود الممكنة من أجل توضيح ومنهجة تلك الحقائق وصبها في سلسلة من الصيغ العقديّة الثابتة التي لا تقبل التغيير. وعلى النقيض من الآلهة الوثنية التي بقيت طبائعها ميالة إلى أن تكون غامضة داخلياً - خيرة وشريرة،

جانوسية الوجوه، متبدلة وفقاً للسياق - لم تعد الشخصيات المسيحية الجديدة، أقله في العقيدة الرسمية، متمتعة بمثل هذا القدر من الغموض، بل صارت محافظة على طبائع ثابتة متحالفة، إما مع الخير أو مع الشر. فالمسرحية الدرامية الأم للمسيحية، مثلها مثل نظيرتها اليهودية (إضافة إلى قريبتها الجينية الفارسية، تلك الديانة الزرادشتية الاستثنائية في ثنائيتها)، متمركزة على المجابهة التاريخية بين مبدئي الخير والشر. وثنائية المسيحية القائمة على الخير والشر، على الرب والشیطان، لم تكن، في النهاية، إلا إحدى ثمار أحديتها؛ لأن وجود الشيطان متوقف، آخر المطاف، على الرب خالق الجميع الأعلى وسيدهم.

بالمقارنة مع النظرة الوثنية، كانت النظرة المسيحية إلى العالم لا تزال قائمة على مبدأ متعالٍ، ولكنها الآن باتت بنية أحادية بصرامة، محكومة برب واحد على نحوٍ مطلق. بين اليونانيين كان أفلاطون الأكثر أحدية، أي الأرسخ إيماناً بالتوحيد، غير أن مقولتي «الرب» و«الأرباب» كانتا، حتى بالنسبة إليه، قابلتين للتبادل في الكثير من الأحيان. أما بالنسبة إلى المسيحيين فلم يكن ثمة أي غموض من هذا القبيل. بقي المتعالي أولياً، كما عند أفلاطون، ولكنه لم يعد تعددياً. فالأفكار مشتقة، والآلهة محظورة.



برغم تأثير الأفلاطونية في نمط تفكير أوغسطين، فإن المقاربة المسيحية للحقيقة بقيت مختلفة جوهرياً عن نظيرتها لدى الفلاسفة الكلاسيكيين. من المؤكد أن العقل أدى دوراً في الروحانية المسيحية؛ لأن الإنسان، كما أكد كلمنت لم يكن قادراً على تلقي اللوغوس (الوحي) الموحى به إلا بفضل ما يتمتع به من عقل. فعقل الإنسان بالذات هو من هبات خلق الرب الأصلية، حيث كان اللوغوس (الكلام) أداة لمبدأ الخلق. وعملية اللحم الأرقى التي جمعت بها المسيحية بين الذكاء والعبادة (بين العلم والدين بلغة العصر)، مقارنة بثنائية الوثنيين الأكثر غموضاً، هي التي اضطلعت بدور حاسم في تعالي المسيحية في الحقبة الكلاسيكية المتأخرة. ولكن المقاربة المسيحية بقيت، على النقيض من البرنامج الفلسفي الإغريقي القائم على التطوير الفكري الذاتي

المستقل نسبة إلى العالم التجريبي والكرة المتعالية للمعرفة المطلقة النازمة لذلك العالم، متركزة على بوح شخص واحد، يسوع المسيح، فراح المسيحي المؤمن يلتمس الاستنارة من قراءة النص المقدس. الفكر وحده لم يكن كافياً للإحاطة بحقيقة الكون، خلافاً لاعتقاد عدد كبير من الفلاسفة اليونانيين من أمثال أرسطوطاليس، حتى ولو جرى تعزيره بالطهر الأخلاقي الذي شدد عليه كل من أفلاطون وأفلوطين. فحسب الفهم المسيحي إن الدور المحوري عائد للإيمان - احتضان الروح الفاعل، حر الإرادة لحقيقة المسيح المتجلية، مع التزام الإنسان بالعقيدة والثقة، فاعلاً في تفاعل غريب مع نعمة الرب الممنوحة مجاناً. لقد تحدثت المسيحية عن نوع من العلاقة الشخصية مع المتعالي. فاللوعوس لم يكن عقلاً لا شخصياً مجرداً، بل هو كلام شخصي مقدس، فعُلِّب من جانب الرب، متاح بوحاً لكل جوهر الإنسان والكون الروحي المقدس. إن اللوعوس هو كلام الرب المنقذ؛ أن تؤمن يعني أن تتقّد.

وهكذا، فإن الإيمان كان الوسيلة الأولى، والعقل الوسيلة الثانية البعيدة، لإدراك المعنى الأعمق للأشياء. عاش أوغسطين اهتداه الأخير، بوصفه تغلباً على مزاعمه الفكرية المتطورة المتقنة، واحتضاناً متواضعاً للعقيدة المسيحية. باستثناء مفاعيل الأفلاطونية، لم تتمخض تأثيرات التطور الفلسفي الخالص لذكاء أوغسطين إلا عن مضاعفة نزوع الأخير إلى الشك فيما يخص إمكانية اكتشاف الحقيقة. فبالنسبة إلى أوغسطين، حتى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، وهي الأعمق والأرسخ دينياً بين المنظومات الفكرية الوثنية، مشوبة بعيوبها ونواقصها الأساسية؛ لأنه لم يهتدِ إلى تلك الحميمية الشخصية مع الرب التي كان يرغب فيها، ولا إلى ذلك البوح الإعجازي الذي كان فيه اللوعوس المتعالي قد تحول إلى جسد في أي مكان²⁰. أما قراءة رسائل بولس فقد كانت، على النقيض من ذلك، هي التي أيقظت في أوغسطين المعرفة التي عاشها، بوصفها محرّرة روحياً. ومن تلك المحطة سارع إلى اعتماد إستراتيجية جديدة لامتلاك الحقيقة: «لدي إيمان كي أفهم». وهنا بالذات كشفت نظرية المعرفة عند أوغسطين عن أساسها اليهودي؛ لأن المعرفة الصحيحة متوقفة آخر المطاف على علاقة الإنسان السليمة مع الرب. فدون الالتزام المسبق بالرب، يبقى مجمل مسار البحث والإدراك

الفكرين معرضاً للانحراف نحو اتجاهات زاخرة بالأخطاء الكارثية.

في النظرة المسيحية، ربما كان العقل البشري ذات يوم كافياً حين كان لا يزال، وهو في الفردوس أو في الحالة الفردوسية، متمتعاً بتناغمه الأصلي مع الذكاء الإلهي. أما بعد تمرد الإنسان وسقوطه من النعيم، فإن عقله خبا بإطراد وباتت الحاجة إلى الإلهام مطلقة. وكان من شأن التعويل، وتطوير أي عقل بشري حصري أن يبقى محكوماً بالتمخض عن جهل وخطأ خطرين. وبالفعل فإن سقوط الإنسان بالذات ترتب على قيامه بسرقة الثمرة من شجرة معرفة الخير والشر، مُقدماً على خطوته الأولى والمصيرية باتجاه الاستقلال الفكري والاعتماد على الذات بكبرياء، وعلى انتهاك أخلاقي لسيادة الرب الحصرية. وباختطافه لمثل هذه المعرفة من نظام السماء، كان الإنسان قد أصيب، بدلاً من أن يستفيد، بالعمى الفكري، وبات عاجزاً عن الاستنارة إلا بنعمة الرب. وهكذا، فإن العقلانية العلمانية ذات الشأن العظيم لدى اليونانيين عُدت ذات قيمة مثيرة للشك فيما يخص الخلاص، مع بقاء الملاحظة التجريبية غير ذات علاقة إلى حد بعيد إلا بوصفها عاملاً يساعد على التحسن الأخلاقي. وفي سياق النظام الجديد، كان الإيمان البريء لأي طفل متفوقاً على المحاكمات المعقدة والمبهمه لأي مفكر خبير بشؤون الحياة وشجونها. واصل لاهوتيو المسيحية تفلسفهم، ودراستهم للقدماء، ومناقشتهم لجملة الأحاجي العقدية - ولكن داخل الحدود المرسومة للعقيدة الجامدة (الدوغما) المسيحية على الدوام. فروع المعرفة كلها باتت ملحقة باللاهوت الذي أصبح الاختصاص البحثي الأهم، والذي اهتدى إلى أساسه الراسخ وقاعدته الثابتة في الإيمان.

بمعنى من المعاني، كان التركيز المسيحي أضيق وأكثر حدة من نظيره اليوناني، ومنطوباً على قدر أقل من الحاجة إلى دائرة تعليمية واسعة. تمثلت الحقيقة الميتافيزيقية العليا في واقع التجسد (تجسد المسيح): التدخل الإلهي الإعجازي في التاريخ الإنساني، ذلك التدخل الذي أفضى إلى تحرير الإنسانية وإعادة توحيد العالم المادي بنظيره الروحي، العالم الفاني بنظيره الخالد، المخلوق بالخالق. ومجرد التقاط ذلك الواقع المدهش كان كافياً لإشباع الجوع الفلسفي، وهو الواقع الذي كان موصوفاً

وصفاً تفصيلياً كاملاً في أسفار الكنيسة. إن المسيح هو مصدر الحقيقة الحصري في الكون، مبدأ الحقيقة المدرك للأشياء كلها بالذات. شمس اللوغوس السماوي تضيء كل شيء. يضاف أن الوعي الذاتي الجديد في الحقبة الكلاسيكية المتأخرة والمسيحية الأولى، وهو متبلور بأكثر الأشكال دقة، بمعنى حرص الروح الفردية على ضمان مصيرها الروحاني، أكثر أهمية بما لا يقاس من اهتمام الذكاء العقلاني بالتفكير النظري أو الدراسة التجريبية. وحده الإيمان بمعجزة افتداء المسيح كان كافياً لجلب أعمق الحقائق المنقذة للإنسان. وعلى الرغم من تبحره، وتقويمه لجملة إنجازات الإغريقين الفكرية والعلمية، فإن أوغسطين قد أعلن بالفم الملآن ما يأتي:

حين يُطرح سؤال: ما الذي يجب علينا أن نؤمن به فيما يخص الدين؟، فليس من الضروري، إذًا، أن نفوض عميقاً في طبيعة الأشياء، كما فعل أولئك الذين يسميهم اليونانيون بالفيزيائيين؛ كما ليس ثمة ما يدعونا إلى الخوف من أن يبقى المسيحي جاهلاً بقوة العناصر وعددها، وبحركة الأجرام السماوية، ونظامها، وخصوفها، وبشكل السماوات، وبمختلف أجناس وطبائع الحيوانات، النباتات، الصخور، الينابيع، الأنهار، الجبال، وبالكرولوجيا والمسافات، وبمؤشرات الأعاصير الموشكة، وبألف شيء آخر من الأشياء التي نجح أولئك الفلاسفة في اكتشافها أو توهموا أنهم فعلوا.... يكفي المسيحي أن يؤمن بأن السبب الوحيد لسائر المخلوقات، السماوية منها والأرضية، المرئية منها وغير المرئية، إن هو إلا خير الخالق، الرب الحقيقي الواحد، وبأن لا شيء موجود، باستثنائه هو، إلا وقد استمد وجوده منه هو²¹.

مع صعود المسيحية، لم تعد الحالة المتدهورة أساساً للعلوم في الحقبة الرومانية المتأخرة تحظى إلا بالقليل من التشجيع على تحقيق المزيد من التطورات الجديدة. فأوائل المسيحيين لم يخضعوا لأي إلحاح فكري دافع إلى «إنقاذ ظواهر» هذا العالم، لعدم انطواء مثل هذا العالم الظاهري على أي معنى، مقارنة بالواقع الروحي المتعالي. بعبارة أدق، كان المنقذ الكلي، المسيح، قد أنقذ الظواهر، فلم يبقَ ما يدعو

إلى الرياضيات والفلك لأداء تلك المهمة. ودراسة الفلك خصوصاً، لارتباطه بالتنجيم والدين الكوني في الحقبة الهلينستية، تعرضت للإهمال. وكانت قد توافرت للعبرانيين التوحيديين فرصة لإدانة المنجمين الأجانب وشجبهم، وقد تمادى هذا الموقف في السياق المسيحي. فالتنجيم، بآلهته الكوكبيين، مع هالة الوثنية ذات الآلهة المتعددة، وبانفتاحه على نوع من الحتمية مناقض لكل من نعمة السماء ومسؤولية الإنسان، أُدين رسمياً من قبل المجالس الكنسية (مع إصرار أوغسطين الاستثنائي على دحض «الرياضيات» التنجيمية)، مما أدى إلى تدهوره التدريجي برغم مدافعيه اللاهوتيين بين الحين والآخر. لم تكن السماوات، في النظرة المسيحية إلى العالم، إلا التعبير المدرك بورع عن مجد الرب وعلى مستوى أكثر شعبية، مقرات الإقامة للرب وملائكته وقديسيه، والملكوت الذي سيعود منه المسيح في مجيئه الثاني. فُهم العالم كله ببساطة وعلى نحوٍ طاعٍ بوصفه خلقاً للرب، فما عادت الجهود الرامية إلى تحقيق الاختراق العلمي لمنطق الطبيعة المتأصل ضرورية أو مناسبة على ما بدا. فالمنطق الحقيقي للطبيعة يعرفه الرب، وما يستطيع الإنسان أن يعرفه عن ذلك المنطق تم الكشف عنه في الإنجيل.

ما من جانب من جوانب الكون إلا وهو خاضع لمشيئة الرب. ولأن التدخل الإعجازي وارد دائماً، فإن عمليات الطبيعة دائمة الخضوع لمشيئة السماء، لا لقوانين طبيعية مجردة. فمواثيق الأسفار المقدسة إن هي، إذًا، إلا الخزائن النهائية والثابتة للحقيقة الكونية، لتلك الحقيقة المطلقة التي لن تستطيع أي جهود إنسانية لاحقة تدعيمها أو تعديلها، أو الثورة عليها. وما علاقة المسيحي الصالح بالرب إلا علاقة الطفل بالأب، طفل صغير جداً وساذج مع أب أضخم بما لا يقاس، كلي المعرفة، كلي القدرة. وبسبب المسافة الكبيرة الفاصلة بين الخالق والمخلوق، تبقى قدرة الإنسان على إدراك آليات الخلق الداخلية محدودة جداً. ومقاربة الحقيقة تتم، إذًا، في المقام الأول، لا عبر بحث فكري محتوم ذاتياً، بل من خلال النص المقدس والصلاة، من خلال الإيمان بتعاليم الكنيسة.



كان كل من بولس وأوغسطين شاهداً على النفوذ والتفوق الطاغيين لمشيئة الرب، على صعيد قدرة حكم الرب على التدمير الروحي لأي نفس غير طاهرة. كل من الرجلين عاش هدايته الدينية الخاصة - بولس في الطريق إلى دمشق، وأوغسطين في إحدى حدائق ميلانو - بوصفها نقطة انعطاف بيوغرافية (حياتية) مسرحية - درامية، مفروضة عنوة جراء تدخل إرادة السماء. فقط بفعل تدخل كهذا جرى إنقاذهما من مواصلة حياة من الممكن الآن رؤية وجهتها المحددة ذاتياً، عبثية ومدمّرة. في ضوء هاتين التجربتين، باتت فاعلية الإنسان المجردة كلها، سواء أكانت إرادة مستقلة أم فضولاً فكرياً، تبدو ثانوية - سطحية، مضلّة، بل خاطئة - إلا إذا كانت مؤهلة لأن تفضي إلى فاعلية موجهة من الرب مئة في المئة: فالرب هو المنبع الحصري للخير كله كما لخلص الإنسان. والبطولة كلها، تلك الميزة المحورية للشخصية اليونانية، باتت الآن متمركزة في شخص المسيح. إن خضوع الإنسان للسماء هو الأولوية الوجودية الوحيدة. ما عداه هراء وعبث. أما الشهادة، الاستسلام الكلي للرب، فتمثل أعلى المثل المسيحية وأرقاها. وبما أن المسيح كان ناكراً للذات على أعلى المستويات، فإن على جميع المسيحيين أن يجاهدوا ليكونوا شبيهين بمخلصهم. التواضع، لا الكبرياء، هو الفضيلة المسيحية المميزة، المطلوبة للخلص. نكران الذات على صعيدي الفعل والقول، الإخلاص للرب وخدمة الآخرين: فقط بمثل العمليات التفريفية للذات من شأن قوة نعمة الرب أن تتوغل في عمق الروح وتحولها.

ومع ذلك، فإن الإنسانية لم تبد متضائلة بفعل مثل هذه العلاقة غير المتكافئة؛ لأن لطف الرب وحبه كانا، وحدهما، كافيين مئة في المئة لتلبية وإشباع حاجات الإنسانية الحقيقية ورغباتها العميقة. وبالمقارنة مع هذه النعم السماوية لم تكن جميع التعويضات العالمية - الأراضية سوى نسخ باهتة، غير ذات قيمة نهائية. هنا بالذات بادر المسيحيون، بالفعل، إلى إطلاق شعارهم المدوي: الرب يحب البشر. لم يكن الرب مصدر النظام العالمي وحسب، وهدف التطلع الفلسفي وحسب، والسبب الأول لكل ما هو موجود وحسب. كما أنه لم يكن مجرد الحاكم للغز للكون والقاضي الصارم لتاريخ البشر. ففي شخص يسوع كان الرب قد خرج من تعاليه وكشف عبر الزمن كله والبشرية كلها عن حبه اللانهائي لمخلوقاته. هنا كان الأساس المناسب لطريقة حياة جديدة، مستنداً

إلى حب الرب، الذي تمخضت كونيته عن خلق جماعة جديدة من البشر.

أورثت المسيحية أبناءها، إذًا، إحساساً طاعياً بنوع من الاهتمام المباشر بالشؤون الإنسانية، مع اهتمام فاعل بكل روح إنسانية بغض النظر عن مستوى الذكاء أو الثقافة المعطوفين على المشروع الروحاني، ودون حساب للقوة المادية، والجمال، أو الموقع الاجتماعي. وعلى النقيض من التركيز الهليني على الأبطال العظماء والفلاسفة النادرين، دأبت المسيحية على تعميم الخلاص، مؤكدة توفرها للعبيد كما للملوك، وللأرواح البسيطة كما لكبار المفكرين، وللبشعنين كما للجميلين، وللمرضى والمعذبين كما للأقوياء والمحظوظين، وميالة حتى إلى قلب التراتبات القديمة رأساً على عقب. في المسيح بالذات، تم الإجهاز على جميع أشكال الانقسامات بين البشر - من برابرة ويونانيين، من يهود وأغراب (غير يهود)، من سادة وعبيد، من ذكور وإناث - الذين أصبحوا الآن كتلة واحدة. وحكمة المسيح وبطولته النهائيين جعلتا الخلاص ممكناً بالنسبة إلى الجميع، لا بالنسبة إلى قلة فقط: لقد كان المسيح الشمس الغامرة للإنسانية كلها بنورها. لذا فإن المسيحية أضفت قيمة عالية على كل نفس منفردة، غير أن المثل الأعلى الإغريقي للفرد المحدد لمصيره وللعبقرية البطولية تعرض، في هذا السياق، لنوع من التضاؤل لمصلحة هوية مسيحية جماعية. ومثل هذا الرفع للنفس المشاعية، والانعكاس الإنساني للمكوت السماء، بالاستناد إلى الحب المشترك للرب والإيمان بافتداء المسيح، شجع سموً غيرياً، وإخضاعاً، أحياناً، لذات الفرد في سبيل ولاء أكبر لخير الآخرين ولإرادة الرب. غير أن المسيحية قامت من الجهة المقابلة، إذ منحت نفس الفرد صفتي الخلود والقيمة، بتشجيع نمو الوعي الفردي، والمسؤولية الذاتية، والاستقلال الشخصي، نسبة إلى القوى الزمنية، وهي جميعاً سمات حاسمة بالنسبة إلى تشكل الشخصية الغربية.

جلبت المسيحية في تعاليمها الأخلاقية إلى العالم الوثني إحساساً جديداً بقدسية الحياة الإنسانية كلها، وبالقيمة الروحية للعائلة، وبالتفوق الروحي لنكران الذات على الإنجاز الأناني، وبالقدسية الأرضية على الطمع الأرضي، وباللطف والعفو على العنف والانتقام، مع التنديد بالقتل، والانتحار، ووأد الأطفال، وذبح الأسرى، وإذلال العبيد، والتفلت الجنسي والبغاء، ومشاهد السيرك الدامية، كل ذلك في ظل الوعي

الجديد بحب الرب للإنسانية، والطهارة الأخلاقية التي يستلزمها الحب في النفس البشرية. لم تكن المحبة المسيحية، السماوية منها أو الإنسانية، على علاقة قوية بملكوت أفروديت، ولا حتى بإيروس الفلاسفة في المقام الأول، بل المحبة المتبلورة في المسيح، التي عبرت عن نفسها عبراً لتضحية، والمعاناة، والرحمة الكونية الشاملة. ظل المثل الأعلى الأخلاقي المسيحي للخير والإحسان موضوعاً للتبشير والامتثال الواسع أحياناً، وهو مثل أعلى ليس بالتأكيد غائباً عن قائمة الضرورات الأخلاقية في الفلسفة اليونانية - لا سيما في الرواقية التي كانت سابقة للأخلاق المسيحية من نواح كثيرة - ولكنه الآن قد غدا ذا نفوذ أكثر طغياناً على الثقافة الجماهيرية في الحقبة المسيحية، مقارنة بالأخلاق الفلسفية اليونانية في العالم الكلاسيكي.

جرى في المسيحية إبدال الصفة الفكرية الأقوى للمفهوم الإغريقي لكبير الآلهة والصعود الفردي للفيلسوف، مهما كانت تلك العملية حماسية بالنسبة إلى (أفلاطون وأفلوطين) بالحميمية العاطفية والمشاركة جماعياً لعلاقة شخصية، عائلية مع الخالق، وبالاحتضان الورع للحقيقة المسيحية المتجلية. وعلى النقيض من قرون الحيرة الميتافيزيقية السابقة، بادرت المسيحية إلى تقديم حل ناجز مئة بالمئة لمعضلة الإنسان. فأشكال الغموض والفوضى الزاخرة باحتمالات الإزعاج لأي بحث فلسفي خاص دون منارات إرشاد دينية جرى إبدالها الآن بكوزمولوجيا يقينية على نحوٍ مطلق ونظام خلاص مكرس مؤسسياً في متناول الجميع.

إلا أن البحث الفلسفي صار يُنظر إليه من قبل الكنيسة المبكرة، مرة أخرى، بعد أن أصبحت الحقيقة على هذه الدرجة من الرسوخ، بوصفه أقل شأنًا بالنسبة إلى التنمية الروحية، فتم تقييد الحرية الدينية، وقد باتت غير ذات علاقة أساسية، بعناية²². فالحرية الحقيقية موجودة، لا في التأمل الفكري اللامحدود، بل في نعمة المسيح الإنقاذية. ما كانت الديانة المسيحية لتعد مناظرة للفلسفة الهلينية، بله الديانات الوثنية؛ لأن وحيها الفريد كان منطوياً على أهمية قصوى بالنسبة إلى الإنسان والعالم. فاللغز المسيحي لم يكن النتاج القابل للمناقشة والمحكمة الميتافيزيقية الأصلية، ولا أي بديل نافذ آخر من جملة الألفاظ والأساطير الوثنية المختلفة. كانت

المسيحية بالأحرى الإعلان الصادق والأصيل لحقيقة الرب الأعلى المطلقة، التي من شأن الإيمان بها أن يغير ليس قدر الفرد الشخصي وحسب، بل ومصير العالم. ثمة عقيدة مقدسة باتت في عهدة المسيحيين، ومن شأن الجدارة بتلك الثقة، إضافةً إلى تماسك تلك العقيدة، أن تكون بحاجة إلى الصيانة مهما بلغت التكاليف. كان الرهان هو الخلاص الأبدي للإنسانية جمعاء.

حماية العقيدة كانت، إذًا، أولى أولويات أي مسألة من مسائل الحوار الفلسفي أو الديني؛ ومن هنا فإن مثل ذلك الحوار كثيراً ما كان يتعرض للاختزال خشية تسلل شيطان الشك أو الضلال وحصوله على موطئ قدم في العقول الهشة للمؤمنين. أما الصيغ الأكثر نخبوية على الصعيد الفكري والأقل جموداً عقدياً للمسيحية المبكرة، مثل الحركات الغنوسطية واسعة الانتشار، فتعرضت للإدانة، وما لبثت أن قُمت بضراوة لم تكن أقل شراسة من أساليب قمع الديانات الوثنية. إن الغنوسطيين المتمردين بالتحديد هم الذين ضغطوا على الكنيسة الرسمية لإجبارها على اعتماد تعريف صارم للعقيدة المسيحية في القرنين الميلاديين الثاني والثالث. فحماية ما كانت كنيسة ما بعد الرسل والحواريين تراه الجوهر الوحيد، والهش، بمعنى من المعاني، للوحي المسيحي في مواجهة أعداد متزايدة من الطوائف والمذاهب المتصارعة، بما أقتع أوائل المسيحيين بضرورة ترسيخ معتقدات المؤمنين وترسيخها، ونشرها، ودعمها ببنية كنسية ذات مرجعية وسلطة. وهكذا، فإن الكنيسة المؤسسة، بوصفها التجسيد الحي للإدارة والتدبير المسيحيين، باتت الحامية الرسمية للحقيقة النهائية ومحكمة النقض الأعلى في أي قضايا غامضة، ليس فقط المحكمة، بل والادعاء العام والأداة العقابية تحت تصرف الناموس الديني.

تمثل الظل الجانبي لادعاء الدين المسيحي للكونية الشاملة في تعصبه. فنظرة الكنيسة إلى اعتناق المسيحية، بوصفه ممارسة دينية خاصة متوقفة كلياً على الحرية الفردية والإيمان العفوي، كانت مناقضة مئة في المئة لخطة دائمة التكرار قائمة على فرض الامتثال الديني بالقوة. ومع الهيمنة النهائية للمسيحية نهاية الحقبة الكلاسيكية، تعرضت المعابد الوثنية للهدم المنهجي والأكاديميات الفلسفية للإغلاق رسمياً²³. تماماً كما النزعة الطهرية الأخلاقية التي كانت المسيحية قد ورثتها عن

اليهودية وقفت في وجه الشهوانية السائبة واللاأخلاقية اللتين رأتهما في الثقافة الوثنية. كذلك، وبقدرٍ مساوٍ من التشدد، دأبت المسيحية على تطوير طهرية لاهوتية وقفت سداً في وجه تعاليم الفلسفة الوثنية وأي تصورات ضلالية ومنحرفة للحقيقة المسيحية. لم يكن ثمة عدد كبير من الطرق الصحيحة، ولا عدد كبير من الآلهة والإلهات، المختلفة من مكان إلى آخر ومن شخص إلى غيره. لم يكن ثمة سوى رب واحد وسماء واحدة، وديانة صحيحة واحدة، وخطة إنقاذية واحدة للعالم كله. الإنسانية كلها جديرة بأن تعرف وتتبنى هذه العقيدة الإنقاذية المخلصّة الواحدة. وهكذا، فإن تلك التعددية للثقافة الكلاسيكية، بمدارسها الفلسفية الكثيرة، وبأساطيرها ذوات الآلهة المتعددة المتنوعة، وبحشد دياناتها السرية، هي التي أخلت مكانها لنظام متشدد في توحيدته، في أحادية إلهه، رب واحد، كنيسة واحدة، حقيقة واحدة.

التناقضات في قلب الرؤية المسيحية

قد نشعر هنا في تلمس الخطوط العريضة لوجهين واضحين للاختلاف للنظرة المسيحية في العالم. يمكن للمرء، بالفعل، أن يتعرف، من الانطباع الأول، على نظرتين عالميتين كليتي التباين متعايشتين ومتقاطعتين في المسيحية، نظرتين في حالة توتر مستمر، إحداهما مع الأخرى: فيما الأولى مفرطة في التفاؤل وحاضنة للجميع، تتميز نظيرتها بالصرامة في الأحكام، وكثرة القيود والضوابط، والنزوع إلى اعتماد نوع من التشاؤمية الثنائية. غير أن النظرتين بقيتا، في الحقيقة، وثيقتي الترابط والالتحام، ووجهين للقطعة النقدية نفسها، ضوءاً وظلاً. فالكنيسة منطوية على النظرتين، وقد كانت، من حيث الجوهر نقطة تقاطعهما الفعلي. النظرتان كلتاهما خارجتان من متن الإنجيل، من متون العهدين القديم والجديد، وقد تمّ التعبير عنهما، كلتيهما، بالتزامن، وإن بنسب متفاوتة، في كتابات جميع كبار اللاهوتيين، والمجالس، والتركيبات العقديّة للكنيسة. ومهما يكن من أمر، فمن المجدي أن نبادر إلى التمييز بين النظرتين وتحديدتهما كلٌّ على حدة، وصولاً إلى تسليط الضوء على بعض ملاسبات وتعقيدات ومفارقات الرؤية المسيحية. فلنحاول أولاً وصف هذه الثنائية الداخلية، والانتقال بعد ذلك إلى فهم الأسلوب الذي اعتمدته الكنيسة لحلها.

التركيز في النظرة الأولى المطروحة هنا هو على أن المسيحية باتت ثورة روحية موجودة تواصل تقدمها التدريجي على طريق تحويل وتحرير كل من النفس الفردية والعالم في الضوء المشرق لمحبة الرب المتجلية. بهذا الفهم، لم تكن تضحية المسيح بذاته إلا إطلافاً لعملية إعادة التوحيد الجذرية للإنسانية والعالم المخلوق بالرب، عملية إعادة توحيد متصورة مسبقاً ومطلقة من قبل المسيح وواصلت إلى الاستكمال في عصر قادم مع عودة المسيح. التشديد هنا هو على شمول عملية الافتداء، وعلى اتساع وقوة اللوغوس والروح، وعلى حلول الرب الحالي في الإنسان والعالم، وعلى الفرح والحرية الناتجين، بالنسبة إلى المؤمنين المسيحيين، أبناء الكنيسة، الجسم الحي للمسيح.

أما الوجه الآخر للنظرة، فمتمركز بقدر أكبر من التأكيد على الاغتراب الحالي للإنسان والعالم عن الرب. وهو يشدد، من ثم على مستقبلية الخلاص وانتمائه إلى العالم الآخر، وعلى النهائية الوجودية (الأونطولوجية) لـ «آخريّة» الرب، وعلى الحظر الصارم لسائر الأنشطة الدنيوية، من منطلق تزمّت عقدي محدد من قبل الكنيسة المؤسسية، وخلاص ضيق الحدود مقتصر على نسبة صغيرة من الإنسانية مؤلفة لجماعة مؤمني الكنيسة. خلف هذه النزعات وأمامها ثمة حكم سلبي طاغ وكاسح فيما يخص الوضع الحالي للنفس الإنسانية وللعالم المخلوق، لا سيما قياساً مع كمال الرب كلي القدرة والمتعالى.

مرة أخرى، أي من وجهي هذا الاستقطاب الداخلي في الإطار المسيحي، لا ينفصل في أي وقت من الأوقات عن الآخر. فكل من بولس وأوغسطين أول اللاهوتيين القدماء وآخرهم الذين جددوا الديانة المسيحية المنقولة إلى الغرب، كانا معبرين عن النظرتين كلتيهما في حزمة غير قابلة للفك، وإن بقيت مهلهلة. ومع ذلك، فإن مما سينطوي على قيمة، لأن أوجه الاختلاف في التأكيد بين الطرفين كانت صارخة، ولأن المنظورين كثيراً ما بدوا مستمدين من منابع سايكولوجية مختلفة وتجارب دينية متباينة، تناولهما بوصفين منفصلين وشديدي الانقسام، كما لو كانا في الحقيقة كاملي التمايز أحدهما عن الآخر.

إن الوجه الأول الذي تجري معانيته هنا يهتدي إلى التعبير الأول عن نفسه في رسائل بولس الموجهة إلى الجاليات المسيحية الأولى في الكتاب المقدس وفقاً للإنجيل يوحنا. غير أن الأنجيل الثلاثة الأخرى وأعمال الرسل جاءت في الغالب مؤيدة لهذه النظرة، وما من مصدر واحد أحاط وحده بهذا المنظور من ألفه إلى يائه. أما البصيرة المعبر عنها في هذا الفهم فتمثلت في أن السماء كانت في المسيح قد دخلت العالم، وفي أن خلاص الإنسانية والطبيعة بات الآن وشيكاً. وإذا كانت اليهودية توفراً شديداً، فإن المسيحية كانت إشباعه المجيد. لقد تدفق ملكوت السماء على ميدان التاريخ وراح يحوله بنشاط، متدرجاً في إلزام الإنسان بالالتحاق بركب كمال جديد، وغير قابل للإدراك من قبل. فحياة المسيح، موته، وبعثه باتت في مرتبة معجزة العصور، والعاطفة المترتبة عليها أصبحت من ثم فرحاً وامتناناً زاخرين بالنشوة. المعركة الكبرى قد كُسبت، فالصليب هو رمز النصر. نجح المسيح في تحرير الجنس البشري الذي كان أسير جهله وخطئه هو. ولأن مبدأ القداسة والألوهية موجود في العالم ويصنع معجزاته، فإن محور البحث الروحي هو الاعتراف عن إيمان بصحة تلك الحقيقة العليا والمشاركة المباشرة، في ضوء هذا الإيمان الجديد، في عملية التكشف الألوهي أو السماوي. لقد أشرقت قدرة الملكوت القادم الإنقاذية في شخص المسيح الذي نجح نفوذه الكاريزمي في جمع سائر البشر داخل دائرة جماعة أو أسرة واحدة. أضفى المسيح على العالم حياة جديدة: هو نفسه كان حياة جديدة، نفس ما هو أبدي. ومن خلال آلام المسيح وُلد خلق جديد، متحقق داخل الإنسان وعبره. من شأن الأوج أن يتمثل في إيجاد سماء جديدة وأرض جديدة، وفي دمج الزمن المحدود بالأبدية.

في هذه النظرة، لم تكن «التوبة» التي حض عليها يسوع شرطاً مسبقاً بمقدار ما كانت نتيجة لمعايشة انبثاق فجر ملكوت السماء. لم تكن ندماً متراجعاً وبعثاً على الشلل بشأن أخطاء ماضية بمقدار ما كانت معانقة متقدمة للنظام الجديد، قادرة على جعل حياة المرء القديمة تبدو غير صادقة وعلى ضلال بالمقارنة. كانت نوعاً من العودة إلى المنبع السماوي الذي تتدفق منه البراءة كلها والبدائيات الجديدة جميعها. فتجربة الخلاص المسيحية إن هي إلا حركة انقلابية داخلية مستندة إلى نوع من

التنبه إلى ما بات في طور الولادة، داخل الفرد وداخل العالم. في نظر كثيرين من أوائل المسيحيين، كان زمن الفرح قد بات حاضراً.

غير أن هذا الوحي نفسه، كان، كما بيّن القطب الثاني للرؤية المسيحية بوضوح، يفضي إلى نتائج أخرى، شديدة الاختلاف، حيث تجلّى فعل المسيح الإنقاذي في عالم مصاب بلعنة الاغتراب، بوصفه جزءاً من معركة درامية (مسرحية مثيرة) بين الخير والشر، معركة لم تترسخ حصيلتها بأي من الأشكال، ولا هي مضمونة بالنسبة إلى الجميع. كنوع من تحقيق التوازن مع العنصر الأكثر إيجابية، بهجة، ووحدة في المسيحية، لم يعمد جزء كبير من العهد القديم إلى تأكيد تحول إنقاذي بات متحققاً بمقدار ما بقي مصراً على المطالبة بيقظة متوثبة واستقامة رفيعة المستوى انتظاراً لعودة المسيح، ولا سيما في ظل المخاطر التي ينطوي عليها العالم الحالي الفاسد ومهالك اللعنة الأبدية. ومثل هذه النظرة تم التعبير عنها ليس فقط في الأنجيل الثلاثة المتشابهة - أنجيل متى، ومرقس، ولوقا - بل وفي كتابات بولس ويوحنا أيضاً. يجري التأكيد هنا على أن الإنقاذ النهائي للإنسانية ينتظر فاعلية الرب الخارجية في المستقبل، عبر نهاية رؤيوية (كارثية) للتاريخ ومن خلال المجيء الثاني [للمسيح]. أما الحرب الدائرة بين المسيح والشیطان، فما زالت مستمرة، وجملة المخاطر والعذابات الهائلة في زماننا لا يخففها إلا الإيمان بيسوع التاريخي، وبعودته المخلص، بدلاً من شعور يوحنا الواثق بانتصار المسيح الحاسم على الشر والموت، بحلول الرب الجديد في العالم، وبحصة المؤمن المضمونة في الحياة الأبدية للمسيح الممجّد. الأمل بالمخلص طاغ على طر في الاستقطاب المسيحي، غير أن الحاضر يعاني، في النظرة الثانية، من نوع من السجن في ظلام روعي يجعل الأمل في الإنقاذ أكثر إلحاحاً، بل وحتى يائساً، ويصر على إقحام موقع الافتداء في المستقبل وفي نشاط الرب الخارجي على نحو أكثر حصرية.

هذا الجانب الاستباقي الكامل للمسيحية شبيهه بعناصر معينة مهيمنة في اليهودية، مكنتها من مواصلة التأسيس للرؤية المسيحية. فتجربة طغيان الشر على الإنسان، الاغتراب العميق بين الإنسان والسماء، الإحساس بالانتظار الكئيب لإشارة محددة

عن حضور الرب الإنقاذي في العالم، الحاجة إلى الالتزام بالغ الحساسية بالناموس، محاولة الحفاظ على أقلية طاهرة ومؤمنة في مواجهة عمليات الاجتياح الآتية من البيئة المعادية والملوثة، توقع عقاب رؤيوي (كارثي)، هذه العناصر جميعاً وهي تنتمي إلى الوعي اليهودي برزت من جديد في الفهم المسيحي. وإيقاع الرؤية الدينية ذاك ما لبث، بدوره، أن تعزز وتم وضعه في سياق جديد جراء التأخير المستمر لمجيء المسيح الثاني، وبفعل التطور التاريخي واللاهوتي المصاحب لهذا التأخير.

بشكله الأكثر تطرفاً، وهو أمر كان مميّزاً لتيار التراث المسيحي التقليدي في الغرب بعد أوغسطين، دأب هذا الفهم الأكثر ثنائية على تأكيد تفاهة البشر المتأصلة وعجزهم من ثم عن تجربة طاقة المسيح الخلاصية في هذه الحياة، إلا بطريقة استباقية عبر الكنيسة. وعاكسة ومضخمة التصور اليهودي لسقوط آدم وما ترتب على ذلك من انفصال بين الرب والإنسان، قامت الكنيسة المسيحية بغرس شعور صريح بالخطيئة والذنب، بخطر بل باحتمال عذاب جهنم، وبنوع من الحاجة إلى مراعاة دقيقة للقانون الديني، مع تبرير محدد مؤسساً للروح أمام الرب من ثم، في الأذهان. أما الصورة النشوى للرب، بوصفه كياناً حالاً ومتعالياً في الوقت نفسه، كياناً موحداً للإنسان، والطبيعة، والروح فقد وُضعت هنا بجانب صورة مرجعية قضائية متعالية كلياً منفصلة، بل ومعادية للإنسان والطبيعة. قرب العهد القديم الصارم المتجهم الذي لا يعرف معنى الرحمة أكثر الأحيان (يهوه) متجسد الآن في المسيح القاضي الذي يدين العاصي، كما يخلص الممثل. والكنيسة نفسها -مفهومة هنا بوصفها مؤسسة هرمية أكثر منها أسرة مؤمنين صوفية- مضطلة بالدور القضائي مع قدر ذي شأن من المرجعية الثقافية. أما المثل الأعلى المسيحي المبكر الحدسي للاندماج بالمسيح المنبعث وبالجماعة المسيحية، والاتحاد الفلسفي الصوفي المستلهم هلينياً مع اللوغوس الإلهي، فمتراجعان بوصفهما اثنين من أهداف الدين لمصلحة المفهوم الأكثر يهودية لطاعة مشيئة الرب الصارمة والحازمة، وطاعة قرارات المؤسسة الكنسية التراثية، استطراداً. وهنا كثيراً ما جرى تصوير معاناة المسيح وموته سبباً إضافياً لإدانة الإنسان، بدلاً من تمخضهما عن إلغاء تلك الإدانة. ما لبث

الصلب بوجهه المرعب أن أصبح الصورة المهيمنة، بدلاً من القيامة أو الطرفين معاً. إن علاقة ابن مذبذب بآب متجهم، كما في الجزء الأكبر من العهد القديم، باتت تظلل إلى حد كبير مشهد المصالحة السعيدة مع الجوهر الإلهي المعلن على الضفة الأخرى من المسيحية المبكرة.

ومع ذلك، فإن قطبي الرؤية المسيحية لم يكونا شديدي الافتراق كما قد تشي هذه التمايزات، والكنيسة لم تكتف بحمل معنى الطرفين، بل كانت ترى نفسها الحل المناسب لذلك الانشقاق. ولفهم الطرق التي اعتمدت من أجل توحيد مثل هذه الرسائل المتفارقة ظاهرياً في إطار الدين نفسه، علينا أن نحاول التقاط العملية التي من خلالها تطورت الكنيسة المسيحية، على صعيد تصورها الذاتي من ناحية وعلى المستوى التاريخي من ناحية ثانية، وضغط جملة تلك الأحداث، والشخصيات، والحركات التي تولت إدارة ذلك التطور. حتى ذلك النوع من التمهيص يبقى، على أي حال، معتمداً على الانطلاق أولاً من إدراك، أقله ملاحظة، الإعلان المسيحي البدائي في شيء شبيه بصيغته العائدة إلى القرن الأول.

المسيحية السعيدة

في العهد الجديد، خصوصاً في فقرات معينة من رسائل بولس وإنجيل يوحنا، من الواضح أن الصدع اللانهائي بين الإنساني والإلهي بدا بمعنى من المعاني مجسوراً. فالذنب والألم الناجمان عن ذلك الصدع (بسبب خطيئة آدم) قد جرى تجاوزهما والتغلب عليهما بانتصار المسيح («آدم الثاني»)، فبادر المسيحي المؤمن إلى الاشتراك المباشر في الوحدة الجديدة. وذلك الخيار بدا أخيراً كما لو كان متاحاً للإنسانية. أقدم المسيح على التضحية بنفسه لتمكين الإنسان الفاني من بلوغ الحياة الخالدة: ومع رحيل المسيح عن العالم سارعت روحه إلى النزول وباتت حالة في الإنسانية.

جاء التصور المسيحي الجديد للرب مختلفاً عن الصورة اليهودية التقليدية. لم يقف الأمر عند كون يسوع المسيح (المخلص) الذي سبق لأنبياء اليهود أن بشروا به، الذي أكمل الرسالة الدينية اليهودية في التاريخ. لقد كان أيضاً، متحداً مع الرب؛

وعبر إقدامه على التضحية بنفسه كان يهوا العهد القديم المستقيم الداعي إلى الثواب والعقاب قد انقلب إلى آب العهد الجديد المحب. كذلك دأب أوائل المسيحيين على تأكيد مباشرة وحميمية جديدتين مع الرب، الذي جرى تحويله من القسوة البعيدة ليهوا إلى الإنسانية القريبة ليسوع المسيح، والذي بات الآن محرراً رحيماً أكثر منه قاضياً انتقامياً.

شكل مجيء المسيح، إذًا، قطيعة مع التراث اليهودي وإنجازاً له في الوقت نفسه. (ذلك هو سبب التمييز الواعي لأوائل المسيحيين بين العهدين «القديم» و«الجديد» مع إعلان الأخير لشعارات «الحياة الجديدة»، «الإنسان الجديد»، «الطبيعة الجديدة»، «الطريق الجديدة»، «السماء والأرض الجديدتين»). إن تصدي المسيح للموت، والمعاناة، والشر وانتصاره عليها قد وفرا إمكانية تحقيق مثل ذلك الانتصار وجعلها متاحة لجميع البشر، ومكناهم من إدراك شذائهم في سياق ميلاد جديد أوسع. فالموت مع المسيح إن هو الإقيام معه لمباشرة حياة الملكوت الجديدة. تم النظر إلى المسيح بوصفه نقطة جدّة أبدية، ميلاد بلا حدود لنور إلهي في العالم وفي الروح أو النفس. أما صلبه فجاء تجسيداً لآلام ولادة إنسانية جديدة وكون (كوزموس) جديد. ثمة عملية تحول كانت قد انطلقت في كل من الإنسان والطبيعة بفعل افتداء المسيح، وذلك عملية بدت حدثاً كونياً ذا تأثير في الكون كله. فبدلاً من استمطار اللعنة على إنسانية خاطئة في عالم ساقط، ثمة قدر أكبر من التشديد وتسييل الأضواء على نعم الرب اللامحدودة، وعلى حضور الروح، وعلى محبة اللوغوس للإنسان والعالم، وعلى التقديس، وعلى التأليه، وعلى البعث الكوني الشامل. استناداً إلى ما ورد في كتاباتهم يبدو أن عدداً كبيراً من أوائل المسيحيين قد عاشوا تأجيلاً مفاجئاً لحكم بالإعدام، قلباً لعملية إدانة مؤكدة، وهدية حياة جديدة غير متوقعة، لا حياة جديدة وحسب، في الحقيقة، بل حياة أبدية. وتحت راية هذا الوحي الإعجازي، انطلق هؤلاء ينشرون «النبأ السعيد» لخلاص البشرية.

لقد بولغ في النظر إلى افتداء المسيح على أنه إنجاز مطلق وإيجابي لتاريخ الإنسان ولجمال المعاناة الإنسانية، إلى درجة أن خطيئة آدم الأصلية، ذلك الجذر الأنموذجي الأصلي لغربة الإنسان وفنائه، تم الاحتفال بها، ويا للمفارقة! بوصفها («يا للخطيئة

مباركة!) [O felix culpa!] في طقوس عيد الفصح. جرى النظر هنا إلى السقوط - خطأ الإنسان الأول الذي جلب المعرفة السوداء للخير والشر، أخطاء الحرية على الأخلاق، تجربة الاغتراب والموت- لا بوصفه كارثة مأساوية بشعة خالصة، بل على أنه جزء عضوي مبكر، استعادي، من تطور الإنسان الوجودي ناجم عن افتقاره الطفولي إلى الوعي النافذ، عن هشاشته الساذجة إزاء الخداع. من منطلق إساءة استخدام حرته التي هي من نعم الرب، وتفضيل محبة الذات ورفعها فوق الرب، أقدم الإنسان على تخريب كمال الخلق وأخرج نفسه من دائرة الاتحاد مع السماء. ومع ذلك، فإن الإنسان لا يستطيع الآن أن يعيش البهجة اللانهائية المترتبة على غفران الرب ويعانق روحه الضائعة، إلا عبر وعي مؤلم الحدة بهذه الخطيئة. من خلال المسيح كان يجري ردم الهوة الأولى واستعادة كمال الخلق على مستوى جديد وأكثر شمولاً. ضعف الإنسان أصبح، إذًا، نقطة قوة الرب. فقط من إحساسه بالهزيمة والتناهي يستطيع الإنسان أن يفتح بحرية على الرب. و فقط بسقوط الإنسان يستطيع مجد الرب و حبه غير القابلين للإدراك أن يتجليا تجلياً كاملاً عبر تصويب ما يستحيل تصويبه. حتى غضب الرب الظاهر يمكن أن يُفهم الآن بوصفه عنصراً ضرورياً من عناصر كرمه اللانهائي، كما يمكن النظر إلى المعاناة الإنسانية، بوصفها المقدمة الضرورية لسعادة غير محدودة²⁴.

بانتمصار المسيح على الموت، برؤية الإنسان لاحتمال بعثه الأبدي، كف كل الشر والعذاب الزمنيين عن الانطواء على معنى نهائي سوى التمهيد للفداء. فالعنصر السلبي في الكون بات ميالاً إلى الاضطلاع بدور التمخض، وفقاً لمنطق نوع من السر الإلهي، عن حالة وجود أكثر إيجابية متاحة لجميع المسيحيين. كان بوسع المرء أن يضع ثقته المطلقة في كلي القدرة، نابذاً جميع أشكال القلق بشأن المستقبل للعيش ببساطة «زنابق الحقول». تماماً كما تتغلق البذرة المخبوءة من قلب ظلال الشتاء الباردة لتتفتح على نور الربيع وحياته، كذلك تعكف حتى أحلك ساعات حكمة الرب على صياغة مشروعاتها الرفيعة. فالمسرحية الدرامية كلها من الخلق إلى المجيء الثاني يمكن النظر إليها بوصفها النتائج الأسمى لخطة السماء، عملية تكشف اللوغوس. إن المسيح هو بداية الخلق ونهايته، «الألف والياء»، حكمته الأصلية وتوجيهه النهائي. ما

كان خافياً بات مكشوفاً. هذا كله احتفل به أوائل المسيحيين بنوع من المجاز الصوفي: مع تجسد المسيح كان اللوغوس قد عاد إلى الدخول في العالم مبدعاً أغنية سماوية، ضابطاً نشازات الكون في تناغم كامل، عاكساً صدى فرح الزواج الكوني بين السماء والأرض، بين الرب والإنسانية.

هذا الإعلان المسيحي البدائي للقاء جاء صوفياً، وكونياً، وتاريخياً في الوقت نفسه. من ناحية ثمة تجربة التحول الداخلي العميق: فعيش انبلاج فجر ملكوت الرب كان يعني الوقوع من الداخل في أسر السماء، ممتلئاً بنور الحب الداخلي. بنعمة المسيح ماتت الذات القديمة، المنفصلة والزائفة لتفسح في المجال لميلاد ذات جديدة، الذات الحقيقية المتوافقة مع الرب. فالمسيح كان هو الذات الحقيقية، النواة الأعمق للشخصية الإنسانية. ميلاده في النفس الإنسانية لم يكن وصولاً خارجياً بمقدار ما كان انبثاقاً داخلياً، استيقاظاً على ما هو حقيقي، اقتحاماً جذرياً غير متوقع من جانب القداسة لقلب التجربة الإنسانية. ومع ذلك كان ثمة في المقابل، برفقة هذا التحول الداخلي، العالم كله دائماً على التحول وخاضعاً لعملية الاستعادة إلى مجده السماوي، ليس فقط كما لو بفعل إنارة ذاتية، بل بطريقة وجودية أساسية معينة ذات شأن على الصعيدين التاريخي والجماعي.

هنا بالذات تأكدت نزعة تفاؤلية غير مسبوقة. بصفته المادية والتاريخية انطوت قيامة المسيح على وعد أن من شأن كل شيء - كل تاريخ الأفراد والإنسانية على حد سواء، كل الكفاح، كل الأخطاء والخطايا والنواقص، كل الصفات المادية، مجمل دراما الأرض وواقعها - أن يتعرض بشكل ما للاحتجاج والتصويب في عملية إعادة توحيد مظفرة مع الإله الأكبر اللانهائي. من شأن كل ما هو قاسٍ وعبثي أن يصبح، عندئذ، ذا معنى في التجلي الكامل للمسيح، المعنى المخبوء للخلق. لا شيء سيتعرض للإهمال. ليس العالم سجنًا شريراً، ووهماً يتعذر الاستغناء عنه، بل هو حامل مجد الرب. ليس التاريخ دورة لا نهائية لمراحل متقهقرة، بل هو صيغة أو معادلة تأليه الإنسانية. من خلال قدرة الرب الكلية، أمكن على نحوٍ إعجازي قلب، حتى القدر المتجهم إلى عناية إلهية سمحاء. من شأن العذاب واليأس الإنسانيين أن يصلا، لا إلى محطة راحة فقط، بل وإلى علاج سماوي. بوابات الفردوس الموصدة بإحكام عند السقوط تمت

إعادة فتحها من قبل المسيح. ومن شأن لا محدودية رحمة الرب وقوته أن تتجسّد حتماً في اجتياح الكون وصولاً إلى تتويجه.

يبدو أن كثيرين من أوائل المسيحيين عاشوا في حالة اندهاش مستمرة إزاء الافتداء التاريخي الإعجازي الذي كان قد حصل في اعتقادهم. فتوحيد الكون بات مشرقاً، وقد تمّ إنجاز الانتصار على نهائية جملة الثنائيات القديمة - ثنائيات الإنسان واللّه، والطبيعة والروح، والزمن والأبد، والحياة والموت، والذات والآخر، وإسرائيل وباقي البشرية. وفيما كانوا ينتظرون بتوقٍ مجيء المسيح الثاني، حضوره، حين سيعود من السماوات بمجد كامل أمام العالم كله، بقي وعيهم متركزاً على الحقيقة المحرّرة التي كان المسيح قد أطلقها في عملية الافتداء والإنقاذ - عملية مظفرة يمكنهم أن يسهموا فيها إسهاماً مباشراً. على هذا الأساس قام موقف الأمل المسيحي الطاغي. وعبر فعل الأمل المتواصل للمسيحي المؤمن بقوة الرب وخطته الرحيمتين بالنسبة إلى الإنسانية، بات التعالي على محاولات الحاضر وأخطائه ممكناً. بوسع الإنسانية الآن أن تتطلع إلى الأمام، بثقة متواضعة، نحو إنجاز مستقبلي مجيد، كان موقفها المنغم بالأمل مسهماً بطريقة ما في تحقيقه.

أما لغة الكلام عن المسيح القادم التي استخدمها بولس، ويوحنا، ولاهوتيون مسيحيون أوائل مثل إيريناوس، فبدت موحية، ليس فقط بأن عودة المسيح كانت ستتم بوصفها حدثاً خارجياً، هبوطاً من السماء في موعد غير محدد في المستقبل، بل وبأن من شأنها أيضاً أن تأخذ شكل ميلاد تدريجي من داخل التطور الطبيعي والتاريخي لجميع الكائنات البشرية، التي كانت تتعرض لعملية الاستكمال في المسيح وعبره. ففي تجسده المتواصل والتدريجي في الإنسانية وفي العالم، كان من شأن المسيح أن يوصل الخلق إلى مرحلته المثمرة. قد تكون البذرة مخبوءة الآن في باطن الأرض، غير أنها باتت متحركة، فاعلة نامية ببطء، متقدمة نحو الاكتمال في تكشف مجيد للغز السماء. كتب بولس في رسالته إلى أهل رومية يقول: (الخلق كله يئن في مخاض) ولادة هذا الكائن السماوي، تماماً كما كان المسيحيون جميعاً ملقحين بالمسيح من الداخل، ملقحين بنفس جديدة ستولد لحياة جديدة وأكثر صدقاً في إطار الوعي

الكامل للرب. تاريخ الإنسان مدرسة كبرى لتعلم أسرار القداسة، وللاطلاع على ألغاز السماء، طريق موصلة لكيان الإنسان إلى الرب.

من هذا المنظور كان الإنسان مسهماً نبيلاً في تكشف الرب الإبداعي. وفي اغترابه عن الرب بقي الإنسان، أتمس المخلوقات، قادراً على الاضطلاع بدور مركزي في إصلاح الحالة الخربة للخلق واستعادة صورته الإلهية. كان اللوغوس (الكلام - المنطق) قد هبط على الإنسان؛ كي يتمكن الأخير، عبر اقتسامه آلام المسيح ومبادرته الآن إلى استيعاب اللوغوس بنفسه، من الصعود إلى الرب.

وفي ضوء الوحي المسيحي لم تكن جهود البشر عبثاً. تعين على الإنسان أن يتعذب، وأن يحمل صليب المسيح؛ ليكون قادراً على حمل الرب. لم يكن يسوع المسيح سوى آدم الجديد الذي بادر إلى إطلاق إنسانية جديدة، قابلة للإنجاز في المستقبل مطوّراً طاقات جديدة قائمة على الوعي والتحرر الروحيين، غير أن الإلهي كان من البداية كامناً وفاعلاً على نحوٍ مجيد في الإنسان وفي العالم الحاضر.

المزيد من التناقضات والتراث الأوغسطيني

المادة والروح

كان النزاع الداخلي في المسيحية بين الافتداء والحكم، وبين توحد الرب مع العالم مع تمييز عالي الشحنة الثنائية، استثنائي البروز في موقفه من العالم والجسد الماديين، وهو تناقض أساسي لم يسبق للمسيحية أن حلتها كلياً. فاليهودية والمسيحية دأبتا، بقدر أكبر من الصراحة، مقارنة بمدارس دينية أخرى، على تأكيد ما يتصف به خلق الإرادة الحرة للرب من حقيقة، وعظمة، وجمالية، واستقامة كاملة: بعيداً عن كونه وهماً، زيفاً، واحداً من أخطاء السماء؛ بعيداً عن أن يكون تقليداً ناقصاً أو فيضاً ضرورياً. فالرب خلق العالم، وكان حسناً. يضاف: خلق الإنسان، جسداً وروحاً، على صورة الرب، غير أن كلاً من الإنسان والطبيعة ما لبثا، مع اقتراف الأول للخطيئة وسقوطه، أن فقدوا موروثهما السماوي المقدس، فبدأت مسيرة العذاب الدرامية اليهودية - المسيحية الطويلة الزاخرة بتقلبات حال الإنسان في علاقته مع الرب، في

زحمة عالم مغترب وفارغ روحياً. وبمقدار ما كانت الرؤية اليهودية- المسيحية للخلق الأصلي الشفاف مجيدة، كانت نظرتها إلى سقوط العالم أكثر مأساوية.

ولكن الوحي المسيحي أكد أن المسيح، قد صار إنساناً، لحمًا ودمًا، وكان بعد صلبه قد صعد من جديد في عملية اعتقد الحواريون أنها كانت عملية تحول وتجديد روحية لجسده المادي. وعلى هاتين المعجزتين المركزيتين في العقيدة المسيحية-التجسد والبعث- تأسس الإيمان، لا بخلود النفس وحسب، بل وحتى بخلص الجسد وبعثه، وصولاً إلى خلاص الطبيعة بالذات وبعثها. لا نفس الإنسان فقط، بل وجسده مع أنشطتها تتغير، تكتسب الصفة الروحية، تستعيد قداستها من جديد. حتى الاتحاد الزوجي هنا كان يُنظر إليه، بوصفه انعكاساً لارتباط المسيح الحميم بالإنسانية، منطوياً، على أهمية مقدسة. وفي يسوع كان اللوغوس الأنموذجي الأصلي قد اندمج بصورته المشتقة (الإنسان) مسترجعاً قداسة الأخير الكاملة. أما الانتصار الخلاصي فتمثل في إنسان جديد بكليته، لا مجرد تعالٍ روحي لماديته. ثمة في تعليم «جُعل اللوغوس لحمًا» وفي الإيمان بميلاد الإنسان كله من جديد، بُعدٌ مادي صريح مميز للمسيحية عن تصورات أخرى، أكثر حصرية في صوفيتها.

وهذا الفهم الإنقاذي المسيحي أعاد تأكيد النظرة اليهودية إلى الإنسان، نظرة موازية للفكرة الأفلاطونية الجديدة المتأخرة القائلة: إن الإنسان إن هو إلا كون مصغر عاكس للسماء، وأضفى عليها معنى جديداً، ولكن مع التشديد الأكبر دون شك لليهودية على الإنسان-جسداً وروحاً- بوصفه وحدة متماسكة ذات طاقة حيوية. إن الجسد هو وعاء الروح، وهيكلها، وتعبيرها المجسد. يضاف أن كهانة يسوع كانت منطوية مركزياً على فعل شفاء الجسد والروح مجتمعين. ففي الكنيسة الأولى ثمة إشارات متكررة إلى «المسيح الطيب» وكثيراً ما يرد ذكر الحواريين والرسل، بوصفهم محترفي طبابة وعلاج كاريزميين. إن العقيدة المسيحية البدائية نظرت إلى طبيعة الخلاص الروحي من زوايا سايكوسوماتية (نفسية - جسدية) صريحة. فصورة بولس المهيمنة لبعث البشرية كانت صورة الجسد الواحد للمسيح، البشرية كلها تؤلف أعضاءه، وصولاً إلى كمال المسيح الذي كان رأسها

وتاجها. ومع ذلك، فإن الأمر لم يقف عند استعادة الإنسان إلى القداسة، بل تجاوزها إلى الطبيعة التي كانت قد تعرضت، جراء سقوط الإنسان، للتمزيق إلى أشلاء، وباتت تحلم بخلاصها. ففي رسالته الموجهة إلى الرومان (إلى أهل رومية) قال بولس: «فإن انتظار الخليقة يتوقع تجلي المجد في أبناء الله؛ لأن الخليقة قد أخضعت للباطل، لا عن إرادة، ولكن لأجل الذي أخضعها على رجاء» (رسالة القديس بولس إلى أهل رومية: 19/8 - 20). إن أوائل آباء الكنيسة كانوا مؤمنين بأن المسيح الذي كان سيستعيد العلاقة المقطوعة بين الإنسان والرب، سيقوم في الوقت نفسه بسد الهوة الحاصلة بين الإنسان والطبيعة التي طالما خضعت لمساءلة الإنسان الأنانية منذ السقوط وانزلاق الإنسان إلى درك سوء استعمال الحرية.

لم يتم النظر هنا إلى تجسد المسيح في العالم وافتدائه له، بوصفهما حدثين روحيين حصراً، بل على أنهما، بالأحرى، تطور غير مسبوق وبلا نظير في سياق المادية الزمانية والتاريخ العالمي، وتجسيد لإضفاء الكمال الروحي على الطبيعة - لا بوصفه نقيضاً للطبيعة، بل تحققاً لها - فاللوغوس، حكمة السماء، كان حاضراً في الخلق من بدايته، أما الآن فكان المسيح قد أماط اللثام عن قداسة العالم المضمرة. كان الخلق أساس الخلاص تماماً، كما كانت الولادة الشرط المسبق للبعث. وبهذه النظرة عُدَّت الطبيعة مآثرة الرب النبيلة والحوزة الحالية لتجليه الذاتي، مما جعلها جديرة بالاحترام والفهم.

ولكن نظرة مناقضة كانت أيضاً سمة مميزة بالقدر نفسه للتفكير المسيحي، نظرة هيمنت خصوصاً في المراحل المتأخرة من المسيحية الغربية، حيث بات يُنظر إلى الطبيعة بوصفها الناحية التي لا بد من التغلب عليها في سبيل بلوغ الطهارة الروحية. فالطبيعة، كلها، فاسدة ومحددة. وحده الإنسان، رأس الخلق وقمته، قادر على الخلاص، ووحدها الروح فيه قابلة أساساً للإنقاذ. وبموجب هذا الفهم، تبقى روح الإنسان في صراع مباشر مع الغرائز الوضيعة لطبيعته البيولوجية، وعرضة لخطر الوقوع في شرك ملذات الجسد والعالم المادي. فالجسد المادي هنا كثيراً ما يوصم بأنه ملاذ الشيطان ومنبع الخطيئة. والإيمان اليهودي - المسيحي الأول بخلاص

الإنسان كله مع العالم الطبيعي ما لبث أن تحول من حيث التركيز، خصوصاً تحت تأثير لاهوتيي المسيحية الأفلاطونية الجديدة، إلى إيمان بنوع من الإنقاذ الروحي الخالص الذي لا يفرض إلا إلى توحيد ملكات الإنسان الأسمى فقط - الفطنة الروحية، الجوهر السماوي للروح الإنسانية - مع الرب. وفي حين أن العنصر الأفلاطوني في المسيحية تغلب على ثنائية السماوي - الإنساني عبر النظر إلى الإنسان بوصفه مشاركاً مباشراً في الأنموذج السماوي الأصلي، فإنه دأب في الوقت نفسه على تشجيع ثنائية مغيرة بين الجسد والروح. إن الفطنة الروحية، النوس، هي البؤرة المركزية بالنسبة إلى الهوية السماوية - الإنسانية الأفلاطونية؛ أما الجسد المادي فلا علاقة له بهذه الهوية، بل هو تعطيل لها. وفي صيغها الأكثر تطرفاً دأبت الأفلاطونية على ترويح شعار «الجسد سجن للروح» في الثقافة المسيحية.

مع العالم المادي، كما مع الجسد المادي، يأتي مبدأ أفلاطون القائم على القول بتفوق الواقع المتعالي على العالم المادي الطارئ متمخضاً في المسيحية عن تعزيز ثنائية دأبت بدورها على تأييد نوع من الزهد أو التقشف الأخلاقي. ومثله مثل سقراط أفلاطون بات المسيحي المؤمن يتصور نفسه مواطناً في عالم الروح، مع بقاء علاقته بالدنيا المادية العابرة علاقة غريب وحاج. سبق للإنسان أن كان متمتعاً بنوع من المعرفة السماوية السعيدة، ولكنه ما لبث أن سقط في ظلام الجهل، ووحده الأمل في استعادة ذلك النور الروحي المفقود يحرك النفس المسيحية السجينة في هذا الجسد، وهذا العالم. فقط حين يستيقظ الإنسان من حياته الحالية يمكنه بلوغ السعادة الحقيقية. والموت، بوصفه تحرراً للروح، أثنى من الوجود المبتذل. في أفضل الأحوال، ليس العالم الطبيعي الملموس إلا انعكاساً ناقصاً للملكة الروحية الأسمى القادمة وتمهيداً لها. غير أن الاحتمال الأقوى هو أن العالم المبتذل، بإغراءاته الخادعة، وبمليذاته المثيرة وبقدرته على الحفز المهين للشهوات، من شأنه أن يضل النفس ويحرمها من نعمتها السماوية. لذا فإن سائر الجهود الفكرية والأخلاقية الإنسانية يجب أن تتوجه نحو الروح وما بعد الحياة، بعيداً عن المادة وهذه الحياة. وفي هذا كله ظلت الأفلاطونية توفر تسويقاً فلسفياً قوياً لثنائية الروح والمادة المحتملة في المسيحية.

ومع ذلك، فإن هذا التطور اللاهوتي اللاحق كانت له سوابق كثيرة: كانت ثمة الرواقية، والفيثاغورسية الجديدة، والمانوية، وطوائف دينية أخرى من الإسنائية، متوافرة جميعاً على نزعات دينية قائمة على الثنائية والزهد، تركت بصماتها على النظرة المسيحية. واليهودية نفسها، بإصرارها المميز على محاربة التلوّث الدنيوي والجسدي لما هو مقدس وسمائي، توفر الدعم لمثل هذه التوجهات منذ بدايات هذا الدين الجديد. غير أن تيارات غنوسطية (عرفانية) ثنائية معينة، ناشئة ربما عن تأثر اليهودية الصوفية بالثنائية الزرادشتية، كانت هي الأكثر تطرفاً على هذا الصعيد خلال قرون المسيحية الأولى، مؤكدة نوعاً من الفصل المطلق بين عالم مادي شرير من ناحية وملكوت روعي خير من الناحية المقابلة. واللاهوت الغنوسطي (العرفاني) التوفيقي نجح في إحداث تحول جذري في التصور المسيحي الأرثوذكسي، عبر الحفاظ على القول: إن خالق العالم المادي، يهوه العهد القديم، كان إلهاً ثانوياً ناقصاً واستبدادياً، جاء المسيح الروحي والأب الرحيم لوهي العهد الجديد (هذا الوحي الذي دأب الغنوسطيون على تدعيمه بنصوص أخرى وتحريره لاستبعاد بقايا العقيدة اليهودية التي رأوها زائفة منه) من أجل الإطاحة به. إن روح الإنسان مسجون في جسد غريب داخل عالم مادي غريب لا يستطيع التعالي عليه سوى العرفانيين باطنياً، تلك القلة المختارة من الغنوسطيين. ومثل هذه الرؤية ما فتئت أن ضاعفت توجهات ذات علاقة في سفر يوحنا، مؤكدة جملة الانقسامات بين النور والظلام، بين مملكة المسيح والعالم الخاضع للشيطان، بين النخبة الروحية والساقطين الدنيويين، كما بين يهوه والمسيح، بين العهدين القديم والجديد. وعلى الرغم من أن لاهوتيي المسيحية الأرثوذكسية الأقدم، من أمثال آيريناوس، جادلوا بقوة مدافعين عن استمرارية العهدين القديم والجديد، عن وحدة خطة السماء من التكوين إلى المسيح، فإن صدى قوياً من لحن الثنائية الغنوسطية ترك بصماته على اللاهوت والورع المسيحيين اللاحقين.

فالمسيحية البدائية ذاتها كانت، مثل أمها اليهودية، ميالة بغموض إلى نوع من ثنائية المادة - الروح مع نظرة سلبية إلى الطبيعة وهذا العالم. وإبليس بنظر العهد

الجديد هو أمير هذا العالم؛ بقيت الثقة المسيحية بعالم تحكمه السماء، إذًا، متجاوزة مع الخوف المسيحي من عالم خاضع لحكم الشيطان. يضاف إلى ذلك، دأب جل أوائل المسيحيين؛ رغبة منهم في الابتعاد عن الثقافة الوثنية المعاصرة المفرطة في جنسيتها، على تأكيد الحاجة إلى نوع من الطهر الروحي الذي لا يتسع لغرائز الطبيعة، ولا سيما الجنسية. كانت العزوبية هي الحالة المثالية، مع إبقاء الزواج إجازة ضرورية لحصر جشع الإنسان في حدود معينة. أما الصيغ الاجتماعية والخيرة للمحبة المسيحية فكانت تلقى التشجيع بوصفها بدائل - كان الرهان على آغابه بدلاً من إيروس. وما كان ينطوي على أهمية استثنائية على هذا الصعيد تمثل في توقع عودة المسيح الوشيكية، ذلك التوقع الذي ظل طاغياً على مشاعر الكنيسة المبكرة والذي دأب على تجريد الاعتبارات الفاعلة والمادية من الأهمية. فقدوم ملكوت السماء، وهو حدث كانت أكثرية أوائل المسيحيين تتوقع وقوعه خلال حياتها هي، كان من شأنه استئصال جميع الأشكال المادية والاجتماعية للنظام القديم. وعلى نحو أعم، تمخضت الرغبة في التغلب على المبالغات المادية المتصورة للثقافة الوثنية، جنباً إلى جنب مع تصدي المسيحية المتكررة للملاحقات المعتمدة من قبل الدولة، عن إلزام أوائل المسيحيين بالعزوف عن قيم العالم الحالي، مقابل الحصول على قيم العالم الآخر. فالانسحاب من هذا العالم والتعالى عليه، سواء على طريقة نساك الصحراء أو عبر الشهادة، على نحو أكثر تطرفاً، كانا عاملي جذب قويين بالنسبة إلى أي مسيحي مفعم بالحماس. كثيراً ما كانت التوقعات الرؤيوية - الكارثية تنشأ من التقويمات السلبية جداً لهذا العالم وتولدها.

كانت الحاجة إلى الحفاظ على القداسة والبراءة انتظاراً لمجيء المسيح الوشيك الضرورة القصوى بالنسبة إلى المسيحي الأول. وطبيعة تلك القداسة والطهارة الأخلاقية تحددت في قيام بولس بالمعارضة الجذرية بين «الجسد» و«الروح» حيث الأول شر والثانية خير. صحيح أن بولس ميز بين «الجسد» (ساركس Sarx) بوصفه طبيعة لم يتم إنقاذها، و«الجسم» (سوما Soma) بوصفه تعبيراً عن مجمل الإنسان كله - جزءاً من ثنائية الجسد - الروح الإغريقية بقدر أقل، ومن الوحدة التوراتية القابلة للوقوع في الخطيئة، مع بقائها منفتحة على الخلاص والإنقاذ بقدر أكبر. لقد اقترح

تقويماً إيجابياً لـ «الجسم» في صور مثل جسم المسيح، جسم أعضاء الكنيسة، بعث الجسم، الجسم بوصفه هيكل الروح القدس. وغالباً ما كان يستخدم تعبير «الجسد» للدلالة على ما هو مادي بحد ذاته، لا على الضعف الفاني للإنسان، وتحديدًا على ترفع ذاتي ضيق يجرواؤه انقلاباً أخلاقياً على صعيد الشخصية الإنسانية القويمة، إخضاعاً للروح والجسم الإنسانيين لقوى سلبية دنيا على حساب انفتاح ودي على واقع الرب الروحي الأعظم. لم تكن الخطيئة جنسية مجردة - بالرغم من أن الحياة الخاطئة كانت جنسية في كواييسها - بمقدار ما كانت عملية الرفع الضال لما كان بحق تابعاً للرب، وهي عملية جيدة بحد ذاتها بمعايير سليمة، إلى ما فوق الرب.

ولكن تمييز بولس بين الجسد والجسم بقي مع ذلك غامضاً، في كل من تصريحاته العقديّة وأخلاقه العملية. وقد كان اختياره لـ «الجسد» تعبيراً جامعاً لمثل هذا التحقير المعنوي والميتافيزيقي النافذ، اختياراً مؤثراً. فنزوع الكثيرين من المسيحيين اللاحقين نزوعاً أنموذجياً إلى رؤية ما هو مادي، بيولوجي، وغريزي مياًً بالفطرة إلى ما هو شيطاني ومسؤولاً عن سقوط الإنسان وفساده المتواصل، لم يكن بعيداً عن دعم بولس المفترض. وفي استقطاب الجسد - الروح لدى بولس، وقد ضاعفته نزعات مشابهة في أجزاء أخرى من العهد الجديد، كانت ثمة بذور ثنائية معادية للمادية في المسيحية، جاءت التأثيرات الأفلاطونية، والغنوسطية، والمانوية لمضاعفتها وتعظيمها لاحقاً.

أوغسطين

قام أوغسطين بإمارة اللثام عما كان مضمراً في بولس. وهنا بالذات يتعين علينا أن نضعف من تركيزنا على ذلك الفرد الذي كان من شأن تأثيره في المسيحية الغربية أن يكون فريد الشيوع والدوام. فبالنسبة إلى أوغسطين تضافت جميع هذه العوامل - اليهودية، ولاهوت بولس، وصوفية يوحنا، والتنسك المسيحي المبكر، والثنائية الغنوسطية، والأفلاطونية الجديدة، والحالة النقدية للحضارة الكلاسيكية المتأخرة - مع خصوصيات شخصيته وسيرة حياته لتحديد موقف من الطبيعة وهذا العالم، من تاريخ الإنسان، ومن خلاص الإنسان الذي كان من شأنه أن يقوّل شخصية المسيحية الغربية في القرون الوسطى.

كان أوغسطين، وهو ابن أب وثني وأم مسيحية راسخة الإيمان، متمتعاً بنعمة شخصية زادت حدتها من شحن استقطابه البيوغرافي. وبرغم كونه ذا طبيعة شديدة الحساسية، متابِعاً حياة شباب غارقين في بحر ملذات قرطاجة الوثنية، متولياً أبوة طفل غير شرعي لعشيقته، مواصلاً وظيفة أستاذ الخطابة والبلاغة الدنيوية، ما لبث، تدريجياً، أن انجذب إلى ما هو فائق الحساسية والروحانية، جراء تفضيلاته الفلسفية وإلهاماته الدينية، كما بسبب هواجس الأم، خصوصاً. فعبر جملة من التجارب النفسية العاصفة، ابتعد أوغسطين عن حياته الأولى، ذات التوجهات العلمانية، ماراً بسلسلة مراحل منطوية على معنى ذي شأن بالنسبة إلى فهمه الديني اللاحق: تبنى أولاً حياة الفلسفة العليا بعد الاطلاع على هورتنسيوس (مناشدة Hortensius) شيشرون، ثم ما لبث أن انخرط مطولاً في الطائفة المانوية ذات النزعة الثنائية القوية شبه الغنوسطية؛ أتبع ذلك بالانجذاب المتزايد إلى الأفلاطونية الجديدة الفلسفية؛ واصلاً أخيراً، بعد لقاء مطران ميلانو المسيحي أمبروز، إلى وضع حد لبحثه عبر الاحتضان الكامل للدين المسيحي والكنيسة الكاثوليكية. وكل عنصر من هذا المسلسل ترك بصمته على رؤيته الناضجة التي أثرت بدورها في التفكير المسيحي اللاحق في الغرب من خلال كتاباته المتميزة بقدره خارقة على الإقناع.

كان وعي أوغسطين الذاتي، بوصفه عنصر أخلاق طوعياً ومسؤولاً بالغ الحدة، مثله مثل إدراكه لمدى أهمية الأعباء التي ترتبها الحرية الإنسانية - أعباء الخطأ والذنب، الظلام والمعاناة، الانقطاع عن الرب. وبأحد المعاني، كان أوغسطين الأحداث بين معشر القدماء: كان يمتلك وعياً ذاتياً وجودياً بقدرته فائقة التطور على الاستبطان والمجابهة الذاتية، اهتمامه بالذاكرة ووعي الزمن، فطنته السايكولوجية، شكه وإحساسه بالندم، شعوره بالاغتراب الفردي للنفس الإنسانية في غياب الرب، حدة صراعه الداخلي، ارتياحه وتحذلقه الفكريين. إن أوغسطين هو أول من كتب معبراً عن القدرة على الشك بكل شيء، باستثناء واقع تجربة النفس أو الروح الخاصة في مجالات الشك، والمعرفة، والإرادة، والوجود - مؤكداً بذلك الوجود المحقق لأننا الإنسانية في النفس أو الروح. وقد أكد أيضاً التبعية المطلقة لتلك الأنا للرب الذي لولاه

لم تكن لتستطيع الوجود، بله امتلاكها القدرة على تحصيل المعرفة وتحقيق الذات. فأوغسطين كان أيضاً الأكثر انتماء إلى العصر الوسيط بين القدماء. إن تدينه الكاثوليكي، وتوجهاته التوحيدية، وتركيزه على العالم الآخر، وثنائيته الكونية، كانت جميعاً تبشر سلفاً بالعصر القادم - مثلها مثل إحساسه الحاد بغير المرئي، بإرادة الرب، وبالكنيسة الأم، وبالمعجزات، والنعم، والعناية الإلهية، وبالخطيئة، والشر، والشيطاني. كان أوغسطين إنساناً مشحوناً بالتناقض والغلو، ومن شأن تركته أن تحمل الطابع نفسه.

من المؤكد أن نوعية اهتداء أوغسطين وقوته - تجربة الفرق في النعم المتدفقة عليه من الرب التي نجحت في إبعاده عن العمى الفاسد والأناني لذاته الطبيعية - شكلتا العنصر المتوج لرؤيته اللاهوتية، غارستين في أعماقه قناعة بتفوق إرادة الرب وخيره وبفقر إرادته الحبيسة. فالقوة المضيئة لتدخل المسيح الإيجابي في حياته أبقته الشخص الإنساني في ظل نسبي. ولكن الأمر الذي كان من شأنه أن يكون ذا تأثير استثنائي في فهمه الديني تمثل في الدور المحوري الذي أداه الجنس في بحث أوغسطين الديني. فعلى الرغم من تنبئه إلى أن نظام الطبيعة سماوي أساساً (وأكثر اندفاعاً في الغالب في إطراء جمال الخلق وسخائه من أي أفلاطوني)، بقي أوغسطين حريصاً على التطرف، في حياته الخاصة، في تأكيد الإنكار الزاهد لغرائزه الجنسية شرطاً مسبقاً للاستنارة الروحية الكاملة - وجهة نظر يدعمها تصديه لكل من الأفلاطونية الجديدة والمانوية، مع أنها عاكسة لجذور أعمق في شخصيته وتجربته الخاصتين.

محببة الرب كانت الأطروحة والغاية الأساسيتين لتدين أوغسطين، ومثل هذه المحبة ما كانت لتزدهر ما لم يتم قهر حب الذات وحب الجسد بنجاح. فالانصياع للجسد كان في نظره، أصل سقوط الإنسان؛ قيام آدم بتناول ثمرة شجرة معرفة الخير والشر، ذلك الخطأ الذي شاركت فيه البشرية كلها جرى ربطه، على نحو مباشر، بالشهوة الجنسية (وبالفعل، فإن «المعرفة» التوراتية كانت على الدوام ذات أصداء جنسية). وفي نظر أوغسطين، فإن الطابع الشرير للشهوة الجسدية كان متجلياً في الخجل المصاحب للتعبير عنها، على نحو غير خاضع لتحكم الإرادة العقلانية،

والمصاحب أيضاً لمجرد عري الأعضاء الجنسية. ما كان من شأن التكاثر والإنجاب في الفردوس قبل السقوط أن ينطوي على مثل هذا القدر من الطيش والعار الحيوانيين. أما الزواج فيستطيع الآن، أقله، استخلاص بعض الخير من الشر الموروث؛ لأنه جالب للنسل، وللالتزام الدائم، ولتنوع من حصر الجنس بأغراض التكاثر والتناسل. غير أن الخطيئة الأولى مست جميع الخارجين من أرحام الأجساد، مما أدى إلى إخضاع البشرية كلها لعنة آمم الولادة، للمعاناة والذنوب في الحياة، ولشر الموت الأخير. فقط بشفاعة المسيح وبيعث الجسد كان من شأن جميع آثار تلك الخطيئة أن تزال فيتم تحرير روح الإنسان من لعنة طبيعته الساقطة.

صحيح أن أوغسطين كان يرى أن جذر الشر لم يكن كامناً في المادة، مثلما كان الأفلاطونيون الجدد يرون؛ لأن المادة كانت من صنع الرب، وهي خير، إذاً. لعل الشر كان، بالأحرى، نتاج سوء استخدام الإنسان لإرادته الحرة. فالشر كان كامناً في فعل التحول نفسه - في الابتعاد عن الرب - لا في الشيء الذي تم التوجه نحوه. ومع ذلك، فإن في قيام أوغسطين بربط ذلك الاستخدام السيئ الخاطئ للحرية بالشبق والشهوة الجنسية، وبالفساد الطاغي للطبيعة بعد ذلك، ظلت بذرة الثنائية الأفلاطونية الجديدة والمأنوية الأكثر تطرفاً نابضة بالحياة.

تلك هي الركيزة التي استند إليها مغزى لاهوت أوغسطين الأخلاقي. من المؤكد أن الخلق - الإنسان كما الطبيعة - نتاج استثنائي الروعة لخصب الرب الخير، غير أن ذلك الخلق ما لبث، جراء خطيئة الإنسان الأولى، أن انحرف انحرافاً جذرياً إلى درجة أن لا شيء سوى الحياة السماوية الثانية قادر على استعادة تماسكه ومجده الأصليين. لقد تضاعفت سرعة سقوط الإنسان بسبب تمرده الطوعي على التراتبية السماوية السليمة، تمرده المستند إلى تأكيد قيم الجسد على حساب قيم الروح. بات الإنسان الآن عبداً لأهواء النظام السفلي. لم يعد الإنسان حراً في تقرير مصير حياته من منطلق إرادته العقلانية ببساطة، ليس فقط لوجود ظروف غير خاضعة لتحكمه، بل لأنه مقيد على نحوٍ لا شعوري بالجهل والاشتراط العاطفي. إن أفكاره وأفعاله الخاطئة الأولية كانت قد أصبحت عادات متجذرة، ثم صارت آخر المطاف

أصفاً غير قابلة للتفكيك، ساجنة إياه في حالة غربة ملعونة عن الرب. ما من قوة سوى رحمة السماء قادرة على كسر دوامة الخطيئة الشريرة. إن الإنسان أسير غلوه وكبريائه، شديد الرغبة في فرض إرادته على الآخرين، إلى درجة يبقى معها عاجزاً عن تغيير نفسه بطاقاته الخاصة. وفي حالته الساقطة الحالية لا يمكن لحرية الإنسان الإيجابية أن تقوم إلا على أساس التسليم بنعمة الرب وفضله. فقط الرب قادر على تحرير الإنسان؛ لأن كل فعل يقوم به الإنسان وحده يبقى عاجزاً عن تحريكه باتجاه الخلاص. والرب عارف سلفاً الوقت كله، هوية النخبة وهوية الملعونين، استناداً إلى معرفته الكلية المسبقة لأشكال تجاوب الفريقين المختلفة مع رحمته. وعلى الرغم من أن من شأن العقيدة المسيحية الرسمية ألا تتبنى دائماً صياغات أوغسطين الأكثر تطرفاً للقدر المكتوب سلفاً أو إنكاره شبه الكامل لأي دور بشري فاعل في عملية الخلاص، فإن النظرة المسيحية اللاحقة إلى فساد الإنسان وسجنه الأخلاقيين كانت نظرة متطابقة إلى حد كبير مع نظرة أوغسطين.

وهكذا، فإن الرجل الذي أعلن، بمثل هذه القوة، محبة الرب وحضوره التحريري في حياته الخاصة أقر أيضاً، بفاعلية لم تتوقف قط عن اختراق التراث المسيحي الغربي، بالتبعية والعجز الداخليين للروح الإنسانية المفسدة بالخطيئة الأصلية. من هذا التناقض نشأت، بالنسبة إلى أوغسطين، ضرورة وسيلة نعمة موفرة سماوياً في هذا العالم: ضرورة بنية كنسية ذات مرجعية ونفوذ، يستطيع الإنسان في كنفها أن يلبي حاجاته الملحة والطاغية إلى الإرشاد الروحي، والانضباط الأخلاقي، ونعمة أسرار الكنيسة.

لنظرة أوغسطين النقدية إلى الطبيعة لازمتها المتمثلة في رؤيته التقويمية للتاريخ العلماني. فبوصفه مطراناً ذا نفوذ في عصره، بقي أوغسطين، في المراحل المتأخرة من حياته، مشغولاً بها جسين ملحين: هاجس الحفاظ على وحدة الكنيسة والتماثل العقدي في مواجهة التأثير السلبي لعدد غير قليل من حركات الهرطقة الرئيسة من جهة، وهاجس التصدي التاريخي لسقوط الأباطورية أمام الغزوات البربرية من جهة ثانية. ففي مواجهة الأباطورية المتداعية والزوال الظاهر للحضارة نفسها، لم

يرَ أوغسطين أي أمل واعد في أي تقدم تاريخي حقيقي في هذا العالم. رأى، بدلاً من ذلك، ما يشير إلى الهيمنة المطلقة والسلطة الدائمة للخطيئة الأصلية، التي جعلت هذه الحياة عذاباً، جحيماً على الأرض، لا يستطيع انتشار الإنسان منه سوى المسيح، وهو يرى فيض الشرور والفظاعات، وسيل الحروب وجرائم القتل، وجشع الإنسان واستكباره، وتحلل الإنسان وغرقه في الرذيلة؛ وهو يرى آيات الجهل وصنوف المعاناة المفروضة عنوة على سائر البشر، جاء رد أوغسطين على النقد الأكبر الذي وجهه وثنبيوروما الناجون إلى الديانة المسيحية -نقد أن المسيحية كانت قد أدت إلى تقويض وحدة السلطة الإمبراطورية الرومانية، فتحت الطريق أمام انتصار البرابرة- متمثلاً في طائفة مغايرة من القيم مع رؤية مختلفة بشأن التاريخ: ما من تقدم حقيقي إلا ويكون، بالضرورة، روحياً ومتعالياً على هذا العالم ومصيره السلبي. أما ما ينطوي على أهمية بالنسبة إلى رخاء الإنسان فليس هو الكيان الإمبراطوري العالمي، بل الكنيسة الكاثوليكية. وبما أن العناية الإلهية والخلاص الروحي هما الركيزتان الأساسيتان للوجود الإنساني، فإن أهمية التاريخ العلماني، بقيمه العابرة وتقدمه المتذبذب والسلبي عموماً، متضائلة تبعاً لذلك.

ليس التاريخ، مثل أبعاد الخلق الأخرى، برغم ذلك، إلا أحد تجليات إرادة الرب. إنه مجسد لغاية الرب الأخلاقية. والإنسان عاجز عن الاستيعاب الكامل لتلك الغاية في هذا الزمن الحاضر، الغارق في بحر من الظلام والفوضى، لأن مغزاها لن تتأكد صحتها إلا مع انتهاء التاريخ. ولكن الوجه العلماني للتاريخ ليس تقدماً على نحوٍ إيجابي على الرغم من بقاء تاريخ العالم خاضعاً لتحكم الرب، وروحياً من حيث التصميم (وبالفعل فإن أوغسطين شبه تاريخ العالم بلحن عظيم لمؤلف موسيقي معصوم عن الخطأ، لحن توزعت أجزاءه على تراخيص كنيسة مناسبة لجميع الأحزاب) وبالأحرى فإن التاريخ كان، بسبب نفوذ إبليس المستمر في هذا العالم، محكوماً، كما في الحرب الأبدية بين الخير والشر، بتجسيد تطور تفهيري حاسم للصفوة الروحية وكتلة هالكي الدنيا. وعلى امتداد هذه المسيرة الملحمية المثيرة كثيراً ما تبقى دوافع الرب خافية، ولكنها عادلة في النهاية. ومهما تكن النجاحات أو الإخفاقات الظاهرية المتحققة

للأفراد في هذه الحياة، فإنها كانت كل شيء، مقارنة مع المصائر الأبدية التي كانت أرواحهم قد كسبتها. فخصوصيات التاريخ العلماني وإنجازاته لا تنطوي، بحد ذاتها، على أي أهمية. والأفعال في هذه الحياة ليست ذات شأن، إلا لأنها منطوية على عواقب أخروية، على ثواب أو عقاب سماويين. يبقى بحث الروح الفردية عن الرب أولاً، في حين أن التاريخ وهذا العالم ليسا إلا مسرحين لتقديم تلك الملحمة الدرامية للبحث عن الرب. والهروب من هذا العالم إلى العالم الآخر، من الذات إلى الرب، من الجسد إلى الروح، إن هو، إذًا، إلا الهدف الأبعد والتوجه الأسلم للحياة الإنسانية. أما النعمة الإنقاذية الوحيدة في التاريخ فتمثلة في الكنيسة التي قام المسيح بتأسيسها.

بدلاً من التوقع المسيحي لتغير عالمي حال بالضرورة إضافةً إلى أنه وشيك، بادر أوغسطين إلى نفض يده من هذا العالم الذي لم يكن نزوعه الساقط إلا سلبياً بطبيعته. فحسب وجهة نظر أوغسطين، كان المسيح قد نجح فعلاً في إلحاق الهزيمة بالشیطان، ولكن في ملكوت الروح المتعالية فقط، في ذلك الملكوت الوحيد المنطوي على أهمية حقيقية. إن الواقع الديني الحقيقي لم يكن خاضعاً لتقلبات هذا العالم وتاريخه، وهو واقع لا مجال لمعرفته إلا من خلال معايشة الفرد الداخلية للرب عبر وساطة الكنيسة، كما في الأسرار الكنسية.

وهنا بالذات دخل التأثير الأفلاطوني الجديد - الصعود الروحي الفردي، الداخلي، الذاتي - على الخط، ونجح إلى حد معين في التفوق على المبدأ اليهودي القائم على نوع من الروحانية التاريخية الجماعية، الخارجية. إن قيام الأفلاطونية الجديدة باختراق المسيحية أدى إلى مضاعفته وتفسير العنصر الصوفي والداخلي للوحي المسيحي، ولا سيما ذلك الكامن في إنجيل يوحنا. غير أنها أسهمت بفعلها هذا، وعلى نحو متزامن، في اختزال عنصر التطور التاريخي والجماعي الذي كانت المسيحية البدائية، وخصوصاً مسيحية بولس ولاهوتيين قدماء جداً مثل إيريناوس، قد ورثتها عن اليهودية ودأبت على تطويرها جذرياً. إن إحساس أوغسطين القوي بإدارة الرب للتاريخ - كما في السيناريو الملحمي الذي يقدمه عن المجتمعين غير المرئيين للنخبة والهالكين، لمدينة الرب ومدينة هذا العالم، المتصارعين على امتداد تاريخ الخلق إلى

ساعة الحساب الأخير - بقي عاكساً للرؤية اليهودية الأخلاقية القائلة: إن للرب هدفاً في التاريخ. وبالفعل، فإن من شأن مبدأ المدينتين أن يمارس قدراً كبيراً من التأثير في التاريخ الغربي اللاحق، مؤكداً استقلال الكنيسة الروحية عن الدولة العلمانية. غير أن استخفافه الشديد بما هو علماني، مضافاً إلى خلفيته الفلسفية، وميوله النفسية العميقة، وسياقه التاريخي، ما لبث أن تمخض عن تحويل تلك الرؤية وتوجيهها نحو تدين شخصي وداخلي منصب على العالم الآخر.

في جوانب جوهرية أخرى من فكر أوغسطين والنظرة المسيحية المتطورة إلى العالم - كما في ثنائية رب متعالٍ كلي القدرة مقابل مخلوق بشري مقيد بالخطيئة، والحاجة إلى بنية دينية متنفذة مبدئياً وأخلاقياً، متولية إدارة أسرة مؤمنين نخبة - كانت الحساسية اليهودية هي المهيمنة. وقد كان هذا بادياً خصوصاً في تطور مواقف المسيحية المميزة من وصايا الرب الأخلاقية.

الناموس والنعمة

بالنسبة إلى اليهود، كان ناموس موسى دليلاً حياً، عماد ثباتهم الوجودي، الذي تولى أخلاقياً تنظيم حياتهم، مع إبقائهم على علاقة جيدة مع الرب. وفيما كان التقليد اليهودي، كما مثله الفرّيسيون زمن يسوع، يدعو إلى الامتثال الصارم للقانون، فإن المسيحية المبكرة دأبت على تأكيد ما اعتقدت أنه كان رأياً مناقضاً مئة في المئة: صيغ الناموس من أجل الإنسان وطُبق في محبة الرب، بما أدى إلى إلغاء الطاعة القسرية والدعوة، بدلاً من ذلك، إلى نوع من الاحتضان المحرّر والقلبي الصادق لإدارة الرب، كما لو كانت إرادة ذاتية. أما توحد الإرادتين فلا تتوسطه إلا نعمة السماء، هبة الخلاص المجانية التي جلبها المسيح للبشر. من وجهة النظر هذه، لم يكن الناموس قادراً، بوصفاته السلبيّة المنقوشة في الصخر، إلا على فرض الطاعة بالخوف. أما بولس فقد بادر، على النقيض من ذلك، إلى إعلان عدم إمكانية تبرير الإنسان وتبرئته حقاً، إلا عبر الإيمان بالمسيح الذي يستطيع جميع المؤمنين أن يتعرفوا على مجانية نعمة الرب وحرّيتها من خلال فعله الإنقاذي. إن قيود الناموس جعلت الإنسان خاطئاً، ممزقاً ضد نفسه. أما المؤمن المسيحي فقد كان، بدلاً من أن يبقى في علاقة «عبودية»

مع الناموس، حراً؛ لأنه بات، بفضل نعمة المسيح، شريكاً في حرية هذا المسيح.

قبل اهتداء بولس إلى الناموس كان أحد الفريسيين، ومدافعاً متشدداً عن الناموس. أما بعد الاهتداء، فقد شهد بحماسة مهينة للذات على عجز الناموس، مقارنة بقوة حب المسيح وحضور الروح الفاعلين في الشخص الإنساني من الداخل. إلا أن فهم بولس للناموس كان يراه اليهود محاكاة تهكمية لطبيعة هذا الناموس الحقيقية. بالنسبة إليهم، كان الناموس نفسه هبة الرب، قادراً على فرض مسؤولية أخلاقية على الإنسان. كان يرى استقلال الإنسان وعمله الخيري من عناصر اقتصاد الخلاص الضرورية. وكذلك، فإن بولس سلم أيضاً بدور معين لهذين العنصرين، غير أنه أكد أن حياته الخاصة شكلت نموذجاً لعبثية التدين المحكوم بالناموس النهائية. ما هو أكثر من الجهد الإنساني، ولو كان مشرعاً سماوياً، كان مطلوباً من أجل الحصول على شيء أساسي وفوق إنساني، مثل انتشارال الروح الإنسانية وإنقاذها. من المؤكد أن أعمال الخير والمسؤولية الأخلاقية ضرورية، ولكنها غير كافية. فقط هبة السماء العلوية المتمثلة في تجسد المسيح وتضحيته الذاتية جعلت تلك الحياة المتناغمة مع الرب التي كانت روح الإنسان شديدة التوق إليها ممكنة. إن الإيمان بنعمة المسيح، بدلاً من الامتثال الدقيق للوصفات الأخلاقية، كان أضمن طرق الإنسان إلى الخلاص، ودليل ذلك الإيمان تمثل في أعمال المسيحي القائمة على المحبة والخدمة التي جعلتها نعمة المسيح ممكنة. بالنسبة إلى بولس لم يعد الناموس هو السلطان الملزم؛ لأن غاية الناموس الحقيقية كانت هي المسيح.

بادر إنجيل يوحنا مؤكداً بالمثل القطيعة مع الناموس اليهودي، إلى إعلان ما يأتي: «لأن الناموس أعطي بموسى، وأما النعمة والحق فبیسوع المسيح حصلاً» (يوحنا: 17/1). إن إزالة التوتر بين إرادة الرب وإرادة الإنسان، بين الضبط الخارجي والنزوع الداخلي، ممكنة من خلال محبة الرب التي من شأنها أن توحد الإنساني والسماوي في روح أحادية واحدة. أما الاستيقاظ وصولاً إلى مثل هذه الحالة من المحبة السماوية، فمشروط باختبار ملكوت السماء. بات الإنسان الآن قادراً على التحلي بالاستقامة الحقيقية، لا قسراً بل طوعاً سعيداً، في عيني الرب، بسبب افتداء المسيح.

ولكن هذا التناقض في العهد الجديد بين التقييد الأخلاقي والحرية النازلة من السماء لم يكن، مع ذلك، بريئاً من الغموض. فاهتمام الأناجيل بالأخلاق فيما بين الأشخاص كان عنصراً مهيمناً في النظرة المسيحية، غير أن طابعه بدا قابلاً للتفسيرين كليهما. من جهة، بقيت نبرة تعاليم يسوع متطرفة في الغالب على صعيدي الحسم والحكم، مسبوكه بلغة الجدل المتشدد للطابع السامي، ومكثفة في ضوء آخر الأزمان الوشيك. وفي إنجيل متى يتم جعل الناموس حتى أكثر صرامة بالنسبة إلى أتباع يسوع - مع تطلب طهارة القصد جنباً إلى جنب مع الفعل، محبة العدو جنباً إلى جنب مع الصديق، العفو الدائم، العزوف الكامل والكلي عن جميع الأشياء الدنيوية - وتأكيد المطالبة بالاستقامة الأخلاقية، غير المشروطة إلى الحدود القصوى تحت إلحاح المرحلة الانتقالية المسيحية. ومن الجهة الأخرى، فإن تأكيد يسوع المتكرر كان للرحمة بدلاً من الاستقامة الذاتية، وللروح الداخلية بدلاً من النص الخارجي للناموس. فمطالباته بنقاء أخلاقي رفيع، بل ومطلق - قائم على محاكمة الأفكار العفوية جنباً إلى جنب مع الأفعال المدروسة والمتعمدة - بدت منطلقة من الافتراض المسبق لما يتطلب تحقيقه من مثل هذه الطيبة الداخلية ما هو أكثر من إرادة الإنسان، بما مهد الطريق إلى الإيمان بنعمة الرب. كثيراً ما كانت نيته تتبدى ميالة إلى توفير الراحة للفقراء، والحزاني، واليائسين، والمنبوذين والخطاة، مع الإصرار في الوقت نفسه على تحذير المتكبرين والراضين عن ذواتهم، أولئك الآمنين في مواقعهم الروحية والدنيوية. إن أي انفتاح متواضع على النعمة السماوية كان يعني ما هو أكثر من مجرد سلوك مستقيم حقوياً. كان لا بد من اطراد قياس الناموس في ضوء وصية المحبة الأعلى الصادرة عن الرب. ووفقاً للعهد الجديد، فإن المدى الذي كانت أخلاق حقوقية معينة قد بلغت في إلحاق الهزيمة بالممارسة الدينية اليهودية كان دليلاً على أن الناموس كان قد ترسخ وتجمد مع مرور الزمن، نهاية باتت، بحد ذاتها، معسرة، لا ميسرة لعلاقة الفرد السليمة بالرب وبالأخرين.

ولكن حتى التجلي المسيحي الجديد لكرم الرب ونعمته كان عرضة لجملة من التفسيرات والعواقب المتناقضة، ولا سيما في ظل أحوال تاريخية لاحقة. فتأكيد بولس وأوغسطين لنعمة السماء بدلاً من أفعال الإنسان والاستقامة الذاتية أخلى مكانه، ليس

فقط لمشية السماء، بل ولاختزال فعلي لحرية إرادة الإنسان الإيجابية، مقارنةً مع قدرة الرب الكلية. وفي الصراع من أجل الخلاص، كانت جهود الإنسان الخاصة غير ذات شأن نسبياً؛ وحدها قوة الرب الإنقاذية كانت هي الفاعلة. تمثل مصدر الخير الوحيد في الرب، ورحمته فقط هي القادرة على إنقاذ البشرية وإبعادها عن الانزلاق الطبيعي للإنسان الساقط نحو درك الانحراف الأعمى. سائر بني البشر كانوا فاسدين ومذنبين بسبب خطيئة آدم؛ وَحْدَهُ مَوت المسيح كان قد كَفَّرَ عن ذلك الذنب الجماعي. والبعث الذي جلبه المسيح للإنسانية كان حاضراً في الكنيسة، والتبرير الذي كان كل إنسان بحاجة إليه؛ كي لا يهلك كان متوقفاً على أسرار الكنيسة، تلك الأسرار التي كان الوصول إليها يستدعي، بدوره، انسجاماً مع سلسلة معينة من المعايير الأخلاقية والكنسية.

نظراً لأن الكنيسة ومؤسساتها المقدسة كانت أدوات سماوية الإقرار، فإن هذه الكنيسة كانت ذات أهمية فوق إنسانية، بتراتبية ذات مرجعية مطلقة، ونواميس حاسمة. ولأن البشر كانوا فطرياً ميالين إلى الخطيئة ويعيشون في عالم زاخر بالإغراءات الدائمة، فإنهم كانوا بحاجة إلى عقوبات صارمة محددة من الكنيسة ضد أي أفعال أو أفكار منفلة؛ للحيلولة دون سقوط أرواحهم الأبدية في المصير نفسه المنحط لأجسادهم المؤقتة. خصوصاً في الغرب، في ظل الضرورات التاريخية لمسؤولية الكنيسة عن المهتدين الجدد (وهم بدائيون أخلاقياً من وجهة نظر الكنيسة) من الشعوب البربرية، جرى التأسيس لتراتبية رأسية طاغية في مؤسسة الكنيسة، حيث السلطة الروحية كلها منحدره نزولاً، بعد انبثاقها من سلطان بابوي أعلى. وهكذا، فإن اللحن المميز للكنيسة المسيحية في القرون الوسطى - بقواعدها الأخلاقية المطلقة، ببنياتها الحقوقية في القرون الوسطى القضائية المعقدة، بنظام محاسبتها، بشأن أعمال الخير والفضائل، بألوان تمييزها الحساس بين أصناف مختلفة من الخطايا، بمعتقداتها وأسرارها المقدسة، بقدرتها على فرض الحرم، وبتشديدها القوي على منع الجسد؛ حماية له من خطر السقوط الدائم - كثيراً ما بدا أكثر تذكيراً بالمفهوم اليهودي الأقدم لنا موس الرب، بل مبالغة في تأكيد هذا المفهوم، منه بالصورة الأحادية الجديدة لنعمة الرب. غير أن ضمانات متقنة من هذه النوعية بدت ضرورية في العالم

الحالي المبتلي بالعصيان الأخلاقي والمخاطر العلمانية من أجل الحفاظ على منظومة أخلاقية مسيحية أصيلة وريادة عمليات اقتحام الكنيسة للحياة الأبدية.

أثينا والقدس

ثمة ثنائية أخرى في منظومة العقيدة المسيحية انطوت على مسألة نقاوتها واستقامتها ومدى وجوب الحفاظ عليهما. فالنزوع اليهودي إلى الإقصاء الديني والنقاء العقدي كان أيضاً قد انتقل إلى المسيحية، مما أدى إلى الإبقاء على قدرٍ مطرد من التوتر مع العنصر الهليني الذي دأب على البحث، والاهتداء إلى نوع من الدليل على فلسفة سماوية في مؤلفات مفكرين وثنين مختلفين، مؤلفات أفلاطون خصوصاً. وفي حين أن بولس كان أحياناً يشدد على الحاجة إلى تمييز المسيحية تمييزاً كاملاً عن أفكار الفلسفة الوثنية المضلّة، التي تعين تجنبها، بادر، في مناسبات أخرى إلى اقتراح مقاربة أكثر ليبرالية، مستشهداً بشعراء وثنين ومقحماً بمهارة عناصر مستمدة من الأخلاق الرواقية في التعاليم المسيحية (فمستط رأس بولس: طرسوس في آسيا الصغرى كانت في عهده مدينة جامعية أممية اشتهرت خصوصاً بفلاسفتها الرواقيين). وهناك لاهوتيون مسيحيون لاحقون في الحقبة الكلاسيكية كانوا في الغالب مشبعين بالفلسفة اليونانية، قبل الاهتداء إلى المسيحية، فظلوا يجدون قيمة في التراث الهليني. ثمة نزعة صوفية توفيقية أفادت كثيرين من أوائل المفكرين المسيحيين في اندفاعهم إلى الاعتراف بوجود أنماط معاني مماثلة في فلسفات وديانات أخرى، منخرطين غالباً في اعتماد أسلوب التحليل المجازي لعقد المقارنات بين الأدبيات الإنجيلية ونظيرتها الوثنية. فالحقيقة واحدة، حيثما وُجدت، لأن اللوغوس، كلام الرب، كلي الشمول ومطلق الإبداع.

في تاريخ مبكر يعود إلى القرن الثاني بادر الشهيد جوستان أولاً إلى إطلاق لاهوت رأى كلاً من المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ملهمتين بالرب المتعالي نفسه، مع إحياء اللوغوس في الوقت ذاته بكل من العقل السماوي، والذكاء الإنساني، والمسيح المخلص المحقق للتراثين التاريخيين اليهودي والهليني كليهما. وفيما بعد قامت المدرسة المسيحية الأفلاطونية في الإسكندرية بتوظيف التربية البايديا paideia،

نظام التعليم الإغريقي الكلاسيكي الموروث عن عصر أفلاطون والمتمركز على الفنون الليبرالية والفلسفة، أساساً لها، ولكن مع جعل اللاهوت الآن أعلى العلوم وتاج المنهاج التعليمي الجديد. في هذا الإطار بات البحث والتعليم، من حيث الجوهر، صيغة من صيغ دراسة المسيحية، بل تقديسها. ومثل هذا البحث لم يبقَ محصوراً في التراث اليهودي - المسيحي، بل ما لبث أن تجاوزه للإحاطة بكل أوسع، لإضاءة المعرفة كلها بنور اللوغوس (العقل الكوني).

ثمة موقف توفيقى بامتياز، موقف قائم في الوقت نفسه على توظيف الثقافة الإغريقية المثيرة للإعجاب لأغراض اعتذارية مسيحية من جهة وعلى إبقاء نوع من المسافة بينه وبينها من جهة ثانية، عرضه كلمنت الإسكندراني (نسبة إلى الإسكندرية) لدى استخدامه لأوديسة هوميروس: قام أوديسوس مبحراً بالقرب من جزيرة الفاتات في طريق العودة إلى إثياكا بربط نفسه بسارية سفينته؛ ليتمكن من سماع غنائهن الجذاب (امتلاك المعرفة الكاملة) دون الإذعان لإغوائهن أو التعرض للتحطم على شواطئهن الصخرية، كذلك أيضاً كان بوسع المسيحي الناضج أن يشق طريقه عبر زحمة الإغواءات الحسية والفكرية التي يزخر بها العالم العلماني والتراث الثقافي الوثني، مطلعاً عليها اطلاعاً كاملاً، دون التخلي عن معانقة الصليب - سارية الكنيسة - حفاظاً على الأمن الروحي.

ولكن المسيحية كثيراً ما كانت في الوقت نفسه أكثر شبهاً بأمها اليهودية على صعيد رفض أي اتصال مع جملة الأفكار والمنظومات الفلسفية غير المسيحية، عادةً إياها ليس فقط مدنسة، بل وعديمة القيمة. ومن وجهة النظر هذه، فإن النواة الحقيقية للغز المسيحي كانت شديدة التفرد والسطوع إلى درجة استحالة طمسها، أو تشويهها، أو تزويرها ما لم يتم حقنها بتيارات ثقافية أخرى. فالوجه الهليني للمسيحية، اللوغوس (بوصفه حكمة الرب، العقل الكوني) كان يُرى فاعلاً في الحكمة ما قبل المسيحية التي سبقت الوحي، كما في الإطار الأوسع لتاريخ العالم خارج التراث اليهودي - المسيحي. أما في الفهم الأكثر انغلاقاً، فإن اللوغوس (مفهوماً أكثر على أنه كلام الرب) لم يتم الاعتراف به إلا داخل حدود الكتاب المقدس، عقيدة الكنيسة، وتاريخ الإنجيل.

وبالمقارنة مع الإتقان العلماني للفلسفة الوثنية، فإن على الإنجيل المسيحي أن يبدو حماقة مجردة، ومن شأن أي حوار بينهما أن يكون عبثاً بلا جدوى. وهكذا، فإن تيرتوليان أقدم في القرن الثاني، وبإصرار، على مسألة مدى أهمية التراث الهليني مطلقاً عبارته المأثورة: «وما علاقة أثينا بالقدس؟».

زحمة من النظائر اللاهوتية والبدع الدينية - الفنوسطية، المونتانوسية، الدوناتية، البيلاجيوسية، الآريوسية (اليونان) - كانت مقبلة على نحو استثنائي لدى السلطات الكنسية؛ لأنها دأبت على معارضة ودحض قضايا عزيزة على قلب الديانة المسيحية، فعدت من ثم، هرطقات، خطيرة، ومتطلبة لقدر فاعل من الإدانة والشجب. ومطالبه المسيحية بوحدة العقيدة والبنیان، مع ما يصاحبها من تعصب، وجدت جزءاً من قاعدتها في الضرورة المسيحية الملحة - وهي متجلية خصوصاً في بولس - المتمثلة بكون جسد المسيح (أسرة الكنيسة) نقياً وبعيداً عن الانقسامات استعداداً للباروسيا Parousia (المجيء الثاني للمسيح). ومرة أخرى أقدم أوغسطين على اتخاذ موقف مؤثر ينطوي على عناصر من الجانبين، موقف مدعوم بالمعرفة والاحترام من الثقافة الكلاسيكية ولا سيما الفلسفة الأفلاطونية، ولكنه شديد الإدراك في الوقت نفسه لتفوق المسيحية العقدي الفريد، وقوي الفاعلية، ولا سيما مع التقدم في السن، في قمع الهرطقات. إن التفكير المسيحي في القرون المقبلة لأوغسطين بقي، عموماً، عاكساً لموقف مشابه. وبرغم سلسلة مطردة من التأثيرات، الواعية منها وغير الواعية، الآتية من منظومات فلسفية ودينية أخرى، فإن الكنيسة بقيت على الصعيد الرسمي متبينة موقفاً دوغمائياً (عَدَدِيًّا جامداً) ضيقاً ليس فيه إلا القليل من التسامح مع المنظومات الأخرى وفقاً لشروط هذه المنظومات الخاصة.

وهكذا، فإن شعور أوغسطين بالحاجة إلى تقييد أو إنكار (بالنسبة إليه هو كما بالنسبة إلى الآخرين) ما هو تعددي وهرطقي، وما هو بيولوجي، وما هو دنيوي، وما هو إنساني لصالح الرب، لصالح ما هو روحي، لصالح الكنيسة الحقيقية الوحيدة وعقيدتها المقدسة الموحدة، ما لبث أن تبلور في اللحظات الأخيرة من حياة العالم

القديم، وبادر، من خلال تأثيره المقيم والدائم في شخصيات كنسية رئيسة مثل شخصية البابا غريغوري الأعظم، إلى تقديم الكنيسة الغربية القرون الوسطى تجسيداً مؤسسياً. وبسبب النفوذ المرموق لكفره، وكتابات، ولشخصيته، كما بسبب قيام أوغسطين، بمعنى من المعاني، بإنطاق الوعي الذاتي الوليد لحقبة جديدة، فإن تطور الحساسية المسيحية في الغرب تم، في جانب كبير منه، عبر وساطته. فمع نهاية الحقبة الكلاسيكية، كانت الروح الدينية المرحة، والسعيدة، والمنفحة المتجلية في المسيحية البدائية قد تطبعت بطابع مختلف: طابع أميل إلى الانطواء على الذات، وإلى التوجه نحو العالم الآخر، وإلى المزيد من الحذقة الفلسفية، وإن بقي في الوقت نفسه طابعاً أكثر اتصافاً بصفات المؤسسة، والقضاء، والعقيدة الجامدة.

الروح القدس وتقلباتها

بكتير من الوضوح تتركز التوترات الكامنة في قلب المسيحية منذ بدايتها على عقيدة الروح القدس غير العادية، عقيدة القول بالروح القدس شخصاً ثالثاً في الثالوث المسيحي مع كل من الرب الأب والمسيح الابن. يقول العهد الجديد: إن يسوع كان، قبل موته، قد وعد تلامذته بأن الرب كان سيرسل الروح القدس؛ ليبقى معهم لمواصلة مهمته الإنقاذية وإتمامها. و«هبوط الروح القدس» اللاحق على فريق من الحواريين المجتمعين في عيد الحصاد في غرفة علوية بالقدس تم، كما قيل، بوصفه زيارة خارقة للطبيعة بالغة الحدة، مصحوبة بصوت «أشبه بهبوب عاصفة قوية مألئة للغرفة» مع «السنة لهب» ظاهرة فوق كل حوارى. فُسر الحدث من قبل الحاضرين على أنه تأكيد قاطع غير قابل للنقاش؛ لاستمرار حضور المسيح بينهم برغم موته وصعوده. وبعد ذلك مباشرةً بادر الحواريون، حسب ما جاء في أعمال الرسل، إلى الشروع في وعظ الحشود بحماسة وابتهاج: عبر الروح وصلت الكلمة إلى العالم؛ باتت ثمرة آلام المسيح قابلة للتوزيع على البشرية كلها. وكما أن عيد الحصاد كان قد شهد تجلي الناموس على جبل سيناء بالنسبة إلى اليهود، فإنه الآن شاهد، بالنسبة إلى المسيحيين، على نزول وحي جديد، وعلى تدفق الروح. إن عصرًا جديدًا قد بدأ مع هبوط الروح على جميع أفراد شعب الرب. وما لبثت تجربة عيد الحصاد أو العنصرة - من الواضح أنه قد جرى تجديدها في لقاءات جماعية لاحقة، كما في ظروف أخرى منطوية على

ظواهر كاريزمية، مثل عمليات الشفاء وحالات الانجذاب الصوفي النبوية- أن باتت لاحقاً تشكل أساس عقيدة الروح القدس للكنيسة.

إن هذه العقيدة تصورت الروح القدس على أنه روح الحقيقة والحكمة (البارقليط، أو المحامي)، إضافةً إلى كونه مبدأ الحياة السماوي المتجلي في كل من الخلق المادي والبعث الروحي. وفي وجهه الأول أو الإلهامي عُدَّ الروح القدس منبع الإلهام السماوي الذي كان قد تكلم من خلال الأنبياء العبرانيين. أما الآن فقد جرى إلباس الروح ثوباً ديمقراطياً، جُعل في متناول جميع المسيحيين، بدلاً من إبقائه محصوراً في دائرة ضيقة. وفي وجهه الثاني أو الخلاق عُدَّ الروح القدس أبا المسيح داخل أمه مريم، وموجوداً حاضراً في كهانة يسوع الأولى لدى قيام يوحنا المعمدان بتعميده. كان يسوع قد مات من أجل أن يتمكن الروح من أن يحل فينا جميعاً: فقط على هذا النحو أمكن إيصال موت الإنسانية وبعثها إلى كمال الرب. وعبر التدفق المتواصل للروح، كان ثمة تجسد تدريجي للرب في الإنسانية يتحقق، مجدداً وحافزاً الميلاد المقدس للمسيح في الجماعة المسيحية المستمرة. وعلى الرغم من أن المحاكمات الفانية للكائن الإنساني كانت عديمة القيمة وحدها، فإن بوسع المرء اكتساب المعرفة السماوية عبر استهلاك الروح. ومع أن الإنسان عاجز بموارده الخاصة عن العثور على ما يكفي من المحبة في أعماقه للأخرين، فإنه يستطيع، عبر الروح، أن يهتدي إلى قدرٍ غير محدود من الحب الحاضن لسائر البشر. إن الروح القدس هو روح المسيح، هو عامل استعادة الإنسان إلى القداسة، هو قوة الرب الروحية الفاعلة باللوغوس ومن خلاله. لقد وفر حضور الروح القدس إمكانية المشاركة في حياة السماء، وتحقيق حالة الاندماج بالكنيسة والذوبان في بوتقتها، وهي الحالة التي شكلت جوهر أي مشاركة في الرب. أخيراً، تم النظر إلى الروح بوصفه أساس الكنيسة نفسها، معبرة عن ذاتها في جميع جوانب حياة الكنيسة، أسرارها، وصلواتها، وعقيدتها، وتراثها المتطور، وتراثها الهرمي الرسمي، ومرجعيتها الروحية؛ لأن حضور الروح القدس جالب للمرجعية والقداسة السماويتين إلى جماعة الكنيسة المؤمنة.

ولكن الممارسة العنوية لروح القدس سرعان ما دخلت في صراع مع الضرورات

المحافظة للكنيسة المؤسسية. راح العهد الجديد يشبه الروح بنسيم يهب «حيثما يشاء». إلا أن الروح كان، وهو بهذه الصفة، متمتعاً بميزات عفوية وثورية متأصلة جعلته، تحديداً، خارج نطاق أي تحكم. ومدعو حضور الروح من الأفراد بدوا ميالين إلى إنتاج إحياءات يتعذر التنبؤ بمدى تنوعها وظواهر كاريزمية. وفي الكثير من الأحيان كانت مثل هذه التجليات - حركات سائبة وغير مناسبة في قدايس الكنيسة، ووعاظاً جوالين حاملين رسائل متنوعة وغير أصولية - تبدو غير مجدية فيما يخص المتابعة الإيجابية لرسالة الكنيسة. وبالنسبة إلى مثل هذه الظواهر لم تر أن سلطة روح القدس حاضرة حقاً. وإذا لم يتم تعريفه بقدر أكبر من التحديد، فإن مبدأ روح القدس في تجلياته الأكثر تطرفاً بدأ منقلباً إلى تأليه إنساني تجديفي، أوفج في أفضل الأحوال، من شأنه أن يشكل تهديداً لعملية الفصل التقليدي بين الخالق والمخلوق، وأن يتحدى التفرد السامي لمآثرة المسيح الإنقاذية.

بالنظر إلى مثل هذا النزوع نحو ما هو مخرب وهرطقي، ومن منطلق الحاجة إلى الحفاظ على بنية معتقدات وطقوس منظمة، أقدمت الكنيسة على اعتماد رد سلبي عموماً على جملة الاعتراضات المعلنة ذاتياً على روح القدس. تزايد رفض التعبيرات الكاريزمية واللاعقلانية عن الروح - حالات النشوة الروحية العفوية، عمليات الشفاء الإعجازية، التحدث بلغات، النبوءات، التأكيدات الجديدة لإلهامات سماوية - مقابل الترحيب بتجليات أكثر انتظاماً وعقلانية مثل المواعظ، والقدايس والطقوس الدينية المنظمة، والمرجعية المؤسسية، والتزمت العقدي. ثمة لائحة محددة من أعمال الرسل جرى اختيارها بعناية واعتمادها على نحو دائم دون الاعتراف بأي آيات وحي جديدة على أنها كلام الرب المعصوم. ومرجعية الروح القدس التي أودعها المسيح في الرسل الأصليين، ما لبثت أن انتقلت، عبر نظام راسخ مقدس، إلى مطارنة الكنيسة، مع مبادرة بابا روما، خليفة بولس، إلى ادعاء امتلاك السلطة النهائية العليا في الغرب. أما مفهوم الروح القدس بوصفه مبدأ سماوياً ذا طاقة روحية ثورية، كامن في الجماعة الإنسانية ودافعة إياها باتجاه التأليه، فقد تضاءل في الإيمان المسيحي مفسحاً في المجال أمام مفهوم روح القدس الكامن فقط في سلطة الكنيسة المؤسسية وفاعليتها.

تلك هي الطريقة التي تم بها الحفاظ على استقرار الكنيسة واستمرارها، ولو على حساب قدرٍ أكبر من الأشكال الفردانية للتجربة الدينية والدوافع الروحية الثورية.

لم يتم تحديد علاقة الروح القدس بالأب والابن في العهد الجديد بدقة. وأوائل المسيحيين كانوا بوضوح أكثر اهتماماً بحضور المسيح والتحاقه بصوفهم منهم بالصياغات اللاهوتية الدقيقة. وفيما بعد قامت المجالس الكنسية بتحديد الروح القدس، بوصفه الشخص الثالث في ثالوث الرب، حيث بادر أوغسطين إلى وصف الروح بأنه روح المحبة المشتركة الجامعة للأب والابن. لبعض الوقت في العبادات المسيحية المبكرة كان الروح القدس يُتصور على أنه مؤنث (يرمز إليه، كما حصل لاحقاً أيضاً بحمامة)، كما كان يشار إليه أحياناً على أنه الأم المقدسة. وعلى المدى الطويل بات تصور الروح القدس يتم من منطلقات أكثر عمومية ولا شخصية، بوصفه قوة عجيبة ومقدسة، بدت حدته متضائلة جذرياً، مع تزايد اتساع المسافة الزمنية الفاصلة عن جيل الرسل الأول، وباتت الآيات المتواصلة لحضوره، ونشاطه، ومرجعيته، مغروسة في مؤسسة الكنيسة في المقام الأول.

روما والعقيدة الكاثوليكية

تعرض التأثير اليهودي في المسيحية في الغرب -الشعور بأداء رسالة تاريخية بتكليف من السماء، والتشديد على طاعة إرادة الرب، وعلى الصرامة الأخلاقية، وعلى الامتثال العقدي وعلى نزعة الاستبعاد- للمزيد من المضاعفة والتعديل بفعل تأثير روما. فتصور الكنيسة لعلاقة الإنسانية بالرب، بوصفها علاقة حقوقية محددة بصرامة بقانون أخلاقي كان مستمداً جزئياً من الناموس الروماني الذي ورثته الكنيسة الكاثوليكية، رومانية القاعدة، واعتمده. وفاعلية عبادة الدولة الرومانية الدينية كانت مستندة إلى المراعاة المتشددة لحشد من الضوابط والتشريعات. وعلى نحو أكثر جذرية، كان التشريع الروماني على الصعيدين النظري والعملي، معتمداً على فكرة التبرير أو التسويغ؛ فالخطيئة إن هي، لدى نقلها إلى ميدان الدين، إلا مخالفة إجرامية لنوع من العلاقة الحقوقية التي أقامها الرب بينه وبين الإنسان.

وعقيدة التبشير أو التسويغ -للخطيئة، وللذنب، وللتوبة، وللنعمة، وللتعويض- طرحها بولس في رسالته إلى أهل رومية²⁶، وتلقفها أوغسطين ثانية، بوصفها قاعدة علاقة الإنسان بالرب. وبالمثل، فإن الفرض اليهودي القاضي بإخضاع إرادة الإنسان عالية التطور، ولكن المتمردة لإرادة مرجعية السماء وجد أنماطاً ثقافية مؤيدة في الخضوع السياسي المطلوب من قبل البنية السلطوية الهائلة للأمبراطورية الرومانية. الرب نفسه كان يُنظر إليه عموماً من منطلقات عاكسة للبيئة السياسية المعاصرة، بوصفه قائداً وملكاً، سيداً ورب عمل، عادلاً عدلاً مطلقاً دون جدال، حاكماً صارماً للجميع ومتناهي السخاء والكرم، مع المفضلين عنده.

إن الكنيسة المسيحية الحريضة على رسالتها الروحية وعلى المسؤولية الكبيرة الواقعة على كاهلها على صعيد الوصاية الدينية على البشر تطلبت صيغة استثنائية الدوام لضمان بقائها ونفوذها في العالم الكلاسيكي المتأخر. وجملة الأنماط والبنى الثقافية لكل من الدولة الرومانية والديانة اليهودية - السايكولوجية منها والتنظيمية والعقدية - كانت مناسبة جداً لتطور كيان مؤسس قوي واع لذاته قادر على قيادة المؤمنين والدوام عبر الزمن. ومع تطور الدين المسيحي في الغرب، سارعت قاعدتها اليهودية إلى تمثل المواصفات التشريعية والسلطوية القريبة في الثقافة الأمبراطورية الرومانية، وتمت قبوله جزء كبير من طابع الكنيسة الرومانية المميز، وفقاً لتلك المواصفات: سلطة مركزية قوية، بنية قضائية معقدة ضابطة للأخلاق والروح، المرجعية الروحية الملزمة للقسس والمطارنة، شرط الطاعة على أعضاء الكنيسة والتطبيق الفاعل لهذا الشرط، طقوس مؤطرة وأسرار ممأسسة، نزعة توسعية نضالية طاردة تستهدف هداية البرابرة وتمدينهم، وما إلى كل ذلك. قيل: إن سلطة المطران مقدرة من الرب، وغير قابلة للنقاش. فهو الممثل الحي لسلطة الرب على الأرض؛ هو حاكم وقاضٍ تعد قراراته فيما يتعلق بالخطيئة، وبالكفر، وبالحرم، وبقضايا دينية حيوية أخرى ملزمة في السماء. فالحقيقة المسيحية نفسها، في ظل نفوذ روما، أصبحت مسألة معارك حيوية حقوقية، صراعات سياسية، فرمانات أمبراطورية، فروضاً عسكرية، وصولاً، آخر الأمر، إلى مسألة تأكيدات لمرجعية سماوية معصومة

يتمتع بها سلطان روما الجديد: البابا. أما الصيغ المرنة والمشاعية للكنيسة البدائية، فما لبثت أن أخلت مكانها، مرة وإلى الأبد، لمؤسسة كنيسة روما الكاثوليكية التراتبية الهرمية. غير أن العقيدة المسيحية تم الحفاظ عليها، والإيمان المسيحي تم نشره، ومجتمع مسيحي تمت صيانتها في طول أوروبا القرون الوسطى وعرضها، في إطار بنية صارمة وشاملة كهذه.

في المدة التي أعقبت اهتداء قسطنطين إلى المسيحية أوائل القرن الميلادي الرابع، شهدت علاقة روما بالمسيحية انقلاباً كاملاً: كانت روما المضطهدة (بكسر الهاء) قد أصبحت روما المدافعة، الدائبة على الذوبان التدريجي في بوتقة الكنيسة. باتت حدود الكنيسة متطابقة مع حدود الدولة الرومانية، وبات دورها متحالفاً مع الدولة على صعيد صيانة النظام العام وإدارة جملة أنشطة ومعتقدات كتلة المواطنين. ومع حلول عهد البابا غريغوري الأعظم - أنموذج البابوية في القرون الوسطى ومهندسها، الذي تولى السلطة مطلع القرن السادس - كان المجتمع الغربي قد تغير جذرياً إلى درجة أن بيان أوغسطين الجدلي (الديالكتيكي) ضد روح الحقبة الوثنية المتأخرة كان قد أصبح المعيار السائد للثقافة²⁷. فالسرح العام، السيركات، احتفالات الأعياد الوثنية، جرى استبدالها بالاحتفالات التقديسية المسيحية والمسيرات المقدسة، بالأعياد والعطل الدينية. كان ثمة إحساس جديد بنوع من المسؤولية العامة توغل في المسيحية لدى قيام الأخيرة باقتحام المسرح العالمي بوعي غير مسبوق لرسالتها المتمثلة في سيادة العالم روحياً. وعلى نحو متزايد نجحت مؤسسة الكنيسة المتمركزة التراتبية، نظيرة الأمبراطورية الرومانية الدينية، في استيعاب زخم البحث الروحي المسيحي والتحكم به. فبمقدار ما أصبحت الأمبراطورية الرومانية مسيحية، أصبحت المسيحية رومانية.

كذلك كان لقرار قسطنطين القاضي بنقل عاصمة الأمبراطورية الرومانية شرقاً من روما إلى بيزنطة (التي أُعيدت تسميتها بالقسطنطينية) مضاعفات هائلة ومهمة بالنسبة إلى الغرب؛ لأن فراغاً سياسياً وثقافياً كبيراً حصل في أجزاء كبيرة من أوروبا بعد انقسام الأمبراطورية إلى قطاعين شرقي وغربي، وبعد انهيار الأمبراطورية الغربية في أعقاب الهجرات البربرية. صارت الكنيسة المؤسسة الوحيدة

القادرة على صيانة ما يشبه نوعاً من النظام الاجتماعي والثقافة المتمدنة في الغرب، ونجح مطران روما، بوصفه الرأس الروحي للعاصمة الملكية، تدريجياً في استيعاب العديد من التمايزات والأدوار العائدة في السابق إلى الأمبراطور الروماني. بادرت الكنيسة إلى تولي سلسلة من الوظائف الحكومية والإدارية المختلفة وأصبحت سيادة المعرفة والفنون الوحيدة، صار كهنتها الطبقة المتعلمة الوحيدة في الغرب، وصار البابا المرجعية المقدسة العليا، القادرة على تطييب الأباطرة والملوك أو حرمانهم (إخراجهم من دائرة الكنيسة). ومن المحتوم أن الدول الجديدة التي تأسست فوق أنقاض الأمبراطورية الغربية، التي ما لبثت أن اهتدت إلى المسيحية بالتتابع، راحت ترى روما البابوية مركز المسيحية الروحي المتمتع بالسيادة. وعلى امتداد الألفية الأولى، لم تكتفِ الكنيسة الغربية بتركيز سلطتها بين يدي مطران أو بطرك روما، بل سعت بإصرار متدرج إلى تأكيد استقلالها عن الكنائس الشرقية المتمركزة في بيزنطة والمتحالفة هناك مع الأمبراطور الشرقي الذي كان لا يزال حاكماً. تضافرت عوامل المسافات الجغرافية، وفروق اللغة، والثقافة، والظروف السياسية، وجملة التأثيرات المختلفة لغزوات البرابرة والمسلمين، وسلسلة طويلة من النزعات والصراعات العقديّة الكبرى، ونزعات الغرب الاستقلالية بالذات أخيراً على توسيع الهوة الفاصلة بين كنيسة روما اللاتينية وكنيسة بيزنطة اليونانية (الإغريقية) ²⁸.

في ظل هذه الظروف، أُتيحت للمسيحية في الغرب فرصة تاريخية فريدة، اضطلعت الكنيسة الغربية بسلطة كونية خارقة للعادة في أوروبا القرون الوسطى. متحررة من كنيسة الشرق ودولته، منعتقة من جملة البنى المدنية والعلمانية السابقة للأمبراطورية القديمة في الغرب، ومدعّمة بتدين الشعوب والحكام. ما لبثت كنيسة روما أن أصبحت ليس فقط نظيرة الأمبراطورية الدينية، بل وخليفتها التاريخية. والصورة الذاتية المثالية لكنيسة القرون الوسطى الناشئة تمثلت بلوحة عصر سلام روماني روحي مهيمن على العالم تحت ريادة هيئة كهنوتية تراتبية حكيمة ورحيمة. وأوغسطين بالذات كان قد حلم بسقوط روما القديمة، تلك الأمبراطورية الزمنية، في ضوء روما جديدة، الأمبراطورية الروحية للكنيسة المسيحية، التي بدأت مع الرسل وكانت ستستمر عبر التاريخ انعكاساً لصورة ملكوت الرب السماوي في هذا العالم. وبتصرفه

هذا كان أوغسطين يسهم في عملية الانتقال التاريخية التي أقدمت عليها المسيحية، وهي تعيد فهم طبيعة مملكة السماء الموعودة من منطلق الكنيسة الموجودة²⁹. ومع تقدم قرون العصور الوسطى وقيام الكنيسة تدريجياً بترسيخ مرجعيتها وسلطتها في روما، انبثقت كنيسة روما الكاثوليكية، على نحوٍ قاطع وحاسم، بوصفها المؤسسة ذات المرجعية الكونية الصحيحة الوحيدة التي أوكل الرب إليها مهمة إنقاذ الإنسانية.

مريم العذراء والكنيسة الأم

تمخض اهتداء جماهير الوثنيين إلى الديانة المسيحية على نطاق واسع في المراحل المتأخرة من تاريخ الأمبراطورية الرومانية عن تطور لافت آخر في الديانة المسيحية. على الرغم من أن العهد الجديد لم يوفر إلا القليل من المعلومات عن مريم، أم يسوع، والقليل عن التأييد الصريح لأي دور مهم يمكنها أن تضطلع به في كنيسة المستقبل، فإن تقديساً غير عادي لمريم، انبثق عفواً وترسخ، بوصفه أحد العناصر المهيمنة في الرؤية المسيحية الشعبية، خلال الحقبة الكلاسيكية المتأخرة من العصور الوسطى. فالعهدان القديم والجديد كانا، كلاهما، وعلى نحوٍ شبه متطابق، أبوين (بطيريكين) في توحيدهما (في عقديتهما التوحيدية)، غير أن الحشود الوثنية التي اهتدت إلى المسيحية في أمبراطورية ما بعد قسطنطين جلبت معها تقليد الإلهة الأم العظيمة ذا الجذور الراسخة (جنباً إلى جنب مع عدد غير قليل من الأمثلة الأسطورية لعذراوات مقدسات وولادات عذاري لأبطال مقدسين)، ذلك التقليد الذي ما لبث إدماجه بالتدين المسيحي أن أفضى إلى إحداث تعزيز ذي شأن لمدى احترام الكنيسة لمريم، غير أن الأخيرة بقيت، مع ذلك، مختلفة جذرياً عن إلهات الوثنيين، بوصفها الشخصية التاريخية المحورية في عملية تجسد المسيح غير القابلة للتكرار، بدلاً من إلهة طبيعة متولية إدارة دورات أزلية من الموت والبعث. من التربة الأسطورية الوثنية انبثق نوع من الولاء المكثف لمريم التي ما لبث دورها وشخصيتها أن جرى تطويرهما في إطار فهم مسيحي مميز.

من منطلق الخلفية التوراتية وحدها، لم يكن إضفاء مثل هذا الدور الرفيع على مريم في التدين المسيحي تطوراً متوقعاً. فالإشارات إلى مريم في الأناجيل ليست موسعة،

كما أنها ليست كلية التطابق. حين تتلقى في إنجيل لوقا الإعلان الملائكي لاحتمال حملها، يجري تصويرها كريمة الامتثال لمشيئة الرب، مدركة للدور الخاص الذي ستضطلع به في مخطط السماء، فريدة التناسب مع هذا الدور بفضل طهارتها الكلية على الصعيدين الجسدي والنفسي. غير أن مقاطع في إنجيل مرقص، مستتدة ربما إلى تراث أقدم، تصور شخصية إنسانية أكثر أنموذجية، موحية بأنها ربما لم تكن واعية لدور يسوع السماوي خلال جزء كبير من حياته. وكذلك في مرقص ثمة إشارات إلى تمتع يسوع بعدد غير قليل من الأقارب المقربين، ربما من الأشقاء والشقيقات، الذين بدوا، مثل أمه، معارضين يسوع في المراحل الأكبر من إدراكه الذاتي لرسالته. وحتى الإنجيل وفق رواية يوحنا يتضمن إشارات إلى توتر محدد بين مريم وابنها. كذلك يبقى الدليل التوراتي على كون مريم عذراء، حين حملت وأنجبت غامضاً. ثمة إنجيلان، مرقص ويوحنا، لا يأتیان على ذكر الموضوع بالمطلق، مثلهما مثل رسائل بولس. أما إنجيلا متى ولوقا اللذان يفعلان فليسا مطردين ضمناً؛ لأن الروايتين، كليهما، تقدمان شجرتي نسب تبيينان انتساب يسوع المباشر إلى داود (وإصلاً، مع لوقا، إلى آدم)، وتنتهيان بزواج مريم يوسف، لا بمريم نفسها.

ولكن مريم، مع اعتراف المؤمنين بأنها العذراء، ومع قيام اللاهوتيين بتصويرها، بوصفها أداة تجسيد لوغوس (كلام) السماء، سرعان ما ألبست أثواب التبجيل في الكنيسة الأولى، بوصفها حلقة الوصل بين البشرية والمسيح بل وبوصفها مرتبطة عضوياً بالمسيح. في داخل مريم كان الاندماج الأول بين ما هو سماوي وما هو بشري قد حصل. ونظراً لأن المسيح عدّ هو آدم الثاني، فإن مريم عدت حواء الثانية، جالبة الخلاص للبشرية والطبيعة، ومصوّبة عصيان حواء العذراء الأولى، من خلال حملها العذري الامتثالي الطوعي. انتصبت مريم مثلاً أعلى لسائر تلك الفضائل المميزة للمزاج والروح المسيحيين، مثلاً أعلى للطهر والعفة، للطف والتواضع، لآيات البساطة، والحلم، والبركة الخالصة، والجمال الداخلي، والبراءة الأخلاقية، ونكران الذات، والاستسلام لمشيئة السماء.

إن الجمع من خلال مريم بين عنصر التغذية النسوية المستمدة من الإلهة الأم

الوثنية العظيمة وعلاقة الأخيرة الجذرية بالطبيعة أسهم في إضفاء النعومة على الرب اليهودي المتعالي والذكوري الأكثر تشدداً. ورفع مريم إلى ما هو قريب من مرتبة أم إلهية أدى أيضاً (بالنسبة إلى الوثنيين المهتدين) إلى توفير تنمة ضرورية للرب الأب الوحيد والمطلق على نحو يتعذر تفسيره دونها. إن الاعتراف بالأم العذراء وعبادتها أدياً إلى جعل الهيكل المسيحي أكثر تناغمًا مع الإحساس الكلاسيكي بالعالم وشكلاً جسراً قوياً بين المسيحية وديانات الطبيعة الوثنية المؤمنة بالبعث بعد الموت. غير أن دور مريم العذراء بقي في سياق التاريخ الإنساني، في حين أن الإلهات الأمهات السابقات كن يضطلعن برئاسة الطبيعة. ومما انطوى على قدر كبير جداً من الأهمية في نظر أوائل اللاهوتيين أن علاقة أمومة مريم الإنسانية بالمسيح ضمنّت إنسانية الأخير الحقيقية الثابتة، في مواجهة بعض المزاعم الغنوسطية القائلة: إن المسيح لم يكن إلا كياناً مقدساً فوق إنساني حصراً.

أحياناً، بدأ التبجيل الشعبي الواسع لمريم من وجهة نظر الكنيسة متجاوزاً حدود إمكانية التبرير اللاهوتي. إلا أن تلك المشكلة ما لبثت أن حُلّت عن طريق تماهي مريم العذراء مع الكنيسة. فنظراً لأن مريم كانت المؤمنة الأولى بالمسيح جراء تسليمها بإعلان ميلاده السماوي، وأولى من استقبلت المسيح في أحشائها من البشر، فإنها مثلت الأنموذج الأصلي الأول للجماعة الكنسية كلها. وفيما يخص جانب مريم الاستقبالي والعذري، تم النظر إلى الكنيسة على أنها «عروس المسيح» المرشحة للتوحد مع المسيح، حين تتلقى البشرية الفيض السماوي الكامل آخر الزمن. غير أن ما كان أكثر انطواءً على الأهمية تمثل في تماهي مواصفات الأمومة لدى مريم مع الكنيسة: فـ «الكنيسة الأم المقدسة» أصبحت، في ظل الرعاية الكامنة لمريم، ليس فقط تجسيد الإنسانية المسيحية، بل والنسيج أو القوام المغذي الذي يمكن من خلاله احتضان جميع المسيحيين، وحمائهم، وإرشادهم³⁰.

وهكذا، فإن المسيحيين تصوروا أنفسهم أولاد الكنيسة الأم من ناحية، والرب الأب من ناحية ثانية في الوقت نفسه. ومن ثم فإن صورة الأمومة المرضعة والمغذية لمريم العذراء والكنيسة الأم قامت بتكملة وتعديل، ليس فقط الصورة الأبوية المتجهمّة

ليهوه التوراة، بل وميل الكنيسة الخاص إلى النزعتين الحقوقية الصارمة من جهة والتسلطية الأبوية من جهة ثانية³¹. حتى فن عمارة مباني الكنيسة، بمدخلها المضيئة وبنائها الرحيمية المقدسة، ذلك الفن الذي بلغ أوجهه في كاتدرائيات القرون الوسطى العظيمة، دأب على إعادة خلق هذا الإحساس الملموس برحم الأم العذراء المقدس. والكنيسة الكاثوليكية بمجملها تولت مهمة الاضطلاع بالدور الثقافى الكونى الشامل لرحم روجى، وفكرى، وأخلاقى، واجتماعى حاضن للجميع، حامل للجماعة المسيحية الوليدة، لجسد المسيح اللغز، قبل ولادته في ملكوت السماء. لعل تقديس مريم وإضفاء قداسة أمومتها على الكنيسة هما اللذان وفرا الضمانة الأنجح للحفاظ على عنصر التوحيد المسيحي في الروح المسيحية الجماعية.

خلاصة

ارتدى الوحي المسيحي البدائي أثواباً ثقافية وفكرية مختلفة - يهودية، إغريقية وهلينية، غنوسطية (عرفانية) وأفلاطونية جديدة، رومانية ومشرقية دنيا - نجحت المسيحية في إذابتها في بوتقة فريدة في دوامها، وإن بقيت مملأً بالتناقضات في الغالب. وتركيبية البوتقة تلك التعددية في أصولها، ولكن الأحادية في صيغتها المتطورة كان من شأنها أن تتولى عملياً إدارة العقل الأوروبي حتى النهضة.

تعالوا نحاول رسم عدد قليل من خطوط التمايز الوجيزة فيما بين هذه النظرة، وتلك التي كانت سائدة في الحقبة الإغريقية - الرومانية، مركزين خصوصاً هنا على طابع الرؤية المسيحية في الغرب من الحقبة الكلاسيكية المتأخرة، وصولاً إلى العصور الوسطى المبكرة. وفي هذا الإطار المرجعي، مع السماح بعدم الدقة الحتمي في مثل هذه التعميمات، يستطيع المرء أن يقول: إن التأثير الإجمالي للمسيحية في العقل الإغريقي - الروماني كان على النحو الآتي:

(1) إقامة هيئة تراتبية أحادية في الكون، عبر الاعتراف برب أعلى واحد، الثالث الخالق وسيد التاريخ، وصولاً إلى استيعاب ونفي تعددية الديانة الوثنية، مع العمل على الحط من قيمة ميتافيزيقا الصيغ الأنموذجية الأصلية، وإن دون استئصالها.

(2) تعزيز ثنائية الروح - المادة الأفلاطونية من خلال حقنها بعقيدة الخطيئة الأصلية، وسقوط الإنسان والطبيعة، والذنب الإنساني الجماعي، من خلال حرمان الطبيعة إلى حد كبير من أي قداسة كامنة، مشرقة كانت أم موحدية، برغم إبقاء العالم هالة ذات وهج فوق طبيعي، رحمانية كانت أم شيطانية، ومن خلال الاستقطاب الجذري للخير والشر.

(3) إضفاء الصفة الدرامية (الملحمية) على علاقة المتعالي مع ما هو إنساني من منطلق إمساك الرب بدفة التاريخ، وقصة الشعب المختار، والظهور التاريخي للمسيح على الأرض، وعودة ظهوره اللاحقة لإنقاذ البشرية في مستقبل عصر رؤيوي مشحون بالكارثة، مستحدثاً بذلك إحساساً جديداً بحركية تاريخية، بمنطق خلاصي سماوي في تاريخ كان خطياً بدلاً من أن يكون دورانياً؛ دائباً مع ذلك على التدرج في زرع هذه القوة الخلاصية في الكنيسة المؤسسة القائمة، مستعيداً بذلك على نحو مضمّر فهماً للتاريخ أكثر اتصافاً بالسكون³².

(4) استيعاب أسطورة الإلهة الأم الوثنية وتحويلها وصولاً إلى إذابتها في بوتقة لاهوت مسيحي جرى إلباسه ثوباً تاريخياً، فيه مريم العذراء الأم البشرية كما في بوتقة واقع تاريخي واجتماعي متواصل في صيغة الكنيسة الأم.

(5) تقليص قيمة مراقبة العالم الطبيعي، تحليله، أو فهمه، وصولاً إلى الاستخفاف بالموهب التحليلية والتجريبية، أو إنكارها لمصلحة ما هو عاطفي، وأخلاقي، وروحي، مع حصر سائر المواهب الإنسانية بمتطلبات الإيمان المسيحي وإخضاعها لمشيئة الرب.

(6) شجب قدرة الإنسان على التوغل الفكري أو الروحي المستقل في معنى العالم، من منطلق كون الكنيسة والكتب المقدسة صاحبة السلطة والمرجعية المطلقتين في قضية الفصل النهائي لقضية الحقيقة.



لقد قيل: إن الغيوم المانوية خيِّمت على خيال القرون الوسطى. فكل من التدين

المسيحي الشعبي من ناحية وجزء كبير من اللاهوت في القرون الوسطى من ناحية ثانية دل على قدرٍ حاسم من اهتراء العالم المادي والحياة الحالية، مع تكرار حشر «العالم، الجسد، والشيطان» في سلة واحدة بوصفها، ثالثاً شيطانياً. كانت إماتة والجسد ضرورة روحية مميزة. أما العالم الطبيعي فكان وادي البؤس والموت، وقلعة الشر التي كان سيتم انتشار المؤمن منها؛ إشفاقاً عليه عند انتهاء هذه الحياة. فالإنسان لا يأتي إلى العالم إلا مرغماً، شأنه شأن فارس مقتحم لبؤرة ملأى بالأشباح والخطايا؛ أملاً فقط في المقاومة، وتحقيق الغلبة، والعبور إلى الضفة الأخرى. بالنسبة إلى كثيرين من أوائل لاهوتيي العصر الوسيط كانت الدراسة المباشرة للعالم الطبيعي والعمل على تطوير عقل إنساني مستقل تبدوان تهديدين بغضين لتماسك الإيمان الديني. صحيح أن خير قيام الرب بالخلق المادي لم يكن مرفوضاً كلياً، وفقاً للعقيدة المسيحية الرسمية، غير أن العالم بالذات لم يكن يُعد هدفاً جديراً بمسعى الإنسان وتعبه. بالمعنى الروحي بدا العالم غير ذي شأن إلى حد كبير، وإن لم يكن شراً من ألفه إلى يائه.

مصير الروح الإنسانية محسوم سلفاً من السماء، يعرفه الرب قبل بدء الزمن، اعتقاد ومدعوم نفسياً ويتوازى مع العجز الظاهر لإنسان العصر الوسيط المبكر في مواجهة الطبيعة، والتاريخ، والسلطة التقليدية. قد تكون ملحمة حياة الإنسان بؤرة اهتمام مشيئة الرب، إلا أن دور هذا الإنسان بقي ضعيفاً وثانويًا. فبالمقارنة، مثلاً، مع أوديسة هوميروس، من الممكن رؤية الفرد في القرون الوسطى عاجزاً نسبياً أمام الشر والعالم، شخصاً تائهاً في غياب إرشاد الكنيسة وحماتها المطردين. («الهيام» هنا ليس مغامرة بطولية بمقدار ما هو انزلاق هرطقي إلى مهاوي الكفر). والمقارنة مع سقراط، مثلاً، بدا من الممكن رؤية المسيحي في القرون الوسطى معانياً من حصار فكري لا يستهان به. («الشك» هنا ليس أولى الفضائل الفكرية بمقدار ما هو إخفاق روحي خطير). أما تأكيد فردية الإنسان - وهو أمر كان شديد التفتيش في أئنا أيام بريكليس، مثلاً - فقد بدا الآن مرفوضاً إلى حدٍ كبير لمصلحة نوع من التسليم الورع بإرادة الرب، وبلغة أكثر عملية، نوع من الإدعان لسلطة الكنيسة الأخلاقية، والفكرية، والروحية. وهكذا، فإن من مفارقات المسيحية الكبرى أن رسالة كان جوهرها الأصلي

ذلك الجوهر المتمثل في البعث السماوي للكون، محطة تحول الدهور عبر التجسد الإنساني للوغوس (كلام الرب) قد رفعت على نحو غير مسبوق أهمية حياة الإنسان، وتاريخ الإنسان، وحرية الإنسان، ما لبث أن بات مضطرباً بمهمة فرض تصور نقيض إلى هذا الحد أو ذاك.

ولكن النظرة المسيحية إلى العالم، حتى في صيغتها عبر القرون الوسطى، لم تكن على هذه الدرجة من البساطة وأحادية النظرة التي قد توحى بها هذه الفروق. فالحافزان كلاهما - المتفائل والمتشائم، الثنائي والأحادي - بقيا دائمي الاندماج في تركيبية يتعذر تفكيكها. وبالفعل، فإن الكنيسة رأت أن أحد طريفي الاستقطاب كان يجعل الآخر ضرورياً وأن المصير السماوي العظيم للمسيحي المؤمن والجمال الفائت للحقيقة المسيحية كانا، مثلاً، يستدعيان اعتماد مثل هذه التدابير القوية من التحكم المؤسسي والصرامة العقدية. وفي نظر عدد كبير من ذوي الضمائر الحية المسيحيين، فإن واقع استمرار الصيانة الناجحة للوحي والطقس المقدسين قرناً بعد قرن أهم بكثير من الشروع العابرة لسياسة الكنيسة المعاصرة أو التشوهات المؤقتة للمعتقدات الشعبية والعقيدة اللاهوتية. ومن مثل هذا المنطلق نرى أن رحمة الكنيسة المنقذة كامنة آخر المطاف في الأهمية الكونية الشاملة لرسالتها الأرضية. أما الأخطاء الظاهرة للكنيسة العادية فلم تكن إلا آثاراً جانبيةً حتمية للمسعى الإنساني غير المثالي في سبيل تنفيذ خطة ذات مدى بالغ الاتساع على نحو غير قابل للتصور. ومن منطلقات مشابهة، جرى النظر إلى العقائد الجامدة والطقوس المسيحية على أنها فوق وخلف المحاكمة المستقلة للمسيحيين الأفراد - كما لو أن جميع المسيحيين كانوا مكلفين بالاستغراق في عمليات التمثيل الرمزي لحقائق الكون، وهي حقائق ليست آيات سموها وعظمتها في متناول المؤمن على نحو مباشر، وإن كانت مرشحة مع الزمن لأن تصبح قابلة للفهم مع التقدم الروحي للإنسانية. ومهما كانت ضالة مسيحيي العصر الوسيط الوجودية البادية، فإن هؤلاء كانوا متأكدين من أنهم المستفيدون المحتملون من نعمة المسيح الإنقاذية، عبر الكنيسة التي قامت برفعهم إلى ما فوق سائر الشعوب في التاريخ، وبإبطال أي مقارنة سلبية مع الثقافات الوثنية.

غير أننا كنا ضمناً، في مقارنة حقبة بأخرى، بعيداً عن مثل هذه الدفاعات الدينية، دائبين على وضع الشخص المتوسط في المراحل الأولى من المسيحية الغربية في القرون الوسطى في مواجهة فريق صغير نسبياً من اليونانيين اللامعين الذين ازدهروا خلال مدة وجيزة نسبياً تميزت بإبداع ثقافي فريد مطلع الحقبة الكلاسيكية. لم يكن الغرب في القرون الوسطى خالياً من العباقر، حتى ولو كانوا قليلين ونادري التأثير في القرون الأولى. أما الزعم بأن هذا الشح كان عائداً إلى المسيحية أكثر من عودته إلى عوامل تاريخية أخرى، فمن شأنه أن يكون تهوراً وطيشاً، ولا سيما بالنظر ليس فقط إلى انحطاط الثقافة الكلاسيكية قبل صعود المسيحية بزمن طويل، بل وإلى جملة الإنجازات الخارقة للثقافة المسيحية اللاحقة أيضاً. وعلينا ألا ننسى أن سقراط حُكم عليه بالإعدام من قبل النظام الديمقراطي في أثينا؛ بسبب «اللاتقوى، كما لم يكن الفيلسوف أو العالم الوحيد الذي تمت إدانته بسبب آرائه غير الأصولية في العصر القديم. وبالمقابل، فإن الفرسان الأثريين في القرون الوسطى ين للكأس المقدسة لم يكونوا خلفاء غير جديرين لأسلافهم الهوميريين. فنزعة المغامرة والدغمائية موجودتان بالتأكيد في جميع العصور، حتى وإن تعرض التوازن فيما بينهما للتغيرات، ومما لا شك فيه أن أحد الطرفين يؤدي إلى حفز الطرف الآخر على المدى الطويل. وعلى أي حال، فإن أي مقارنة نفسية أعم بين العصرين الوسيط والكلاسيكي من شأنها أن تكون أكثر إنصافاً وأن تشي، ربما، بقدر أقل من التباين.

من الممكن، بالتأكيد، القول: إن مكاسب معنوية واجتماعية تراكمية معينة تحققت للشعوب الوثنية والبربرية التي اهتمت إلى المسيحية، والتي جرى تثقيفها أسبوعاً بعد أسبوع، سنة بعد سنة، بجدوى إضفاء قيمة جديدة على قداسة الحياة الفردية، والاهتمام برخاء الآخرين، والصبر، والتواضع، والعفو، والرحمة. وفي حين أن الحياة الانطوائية كانت في العصور الكلاسيكية من مميزات قلة من الفلاسفة، فإن التركيز المسيحي على المسؤولية الشخصية، وعلي الخطيئة، والاستقالة من الحياة العلمانية، شكل تشجيعاً على الاهتمام بالحياة الداخلية بين صفوف دائرة أوسع بما لا يقاس من السكان. وعلى النقيض مما كان سائداً في قرون غابرة من شك فلسفي واغتراب ديني

مزعجين غالباً، فإن النظرة المسيحية إلى العالم طرحت رحم تغذية روحية وعاطفية مستقراً، عصياً على التغيير، تكون فيه كل نفس إنسانية ذات شأن في إطار المخطط الأكبر للأمور. ثمة شعور بنظام كوني بات سائداً، ومن شأن المبالغة في تقويم الطاقة الكاريزمية العظيمة الكامنة في شخصية يسوع المسيح العليا الجامعة لمجمل الكون المسيحي الشاملة أن تكون صعبة. ومهما كانت القيود التي ربما أحس بها مسيحيو العصور الوسطى، فإن من شأن ذلك أن يكون قد تم التعويض عنه بنوع من الوعي المكثف لمكانتهم المقدسة، مع خلاصهم الروحي المحتمل. وعلى الرغم من أن حياة الإنسان قد تكون امتحاناً الآن، فإن الخطة السماوية للتاريخ بدت دائبة على الدفع التدريجي للمؤمنين باتجاه العودة النهائية إلى التوحد مع الرب. وبالفعل، فإن قوة الإيمان، والأمل، والحب عظيمة، من حيث المبدأ، قادرة على إلغاء كلمة «مستحيل» من قاموس الكون المسيحي، وعلى امتداد حقبة طويلة، كانت غالباً مظلمة وزاخرة بالفوضى، نجحت النظرة المسيحية إلى العالم في رفع راية واقع ملكوت روعي مثالي، يستطيع فيه جميع المؤمنين، أولاد الرب، أن يجدوا ملاذاً يأويهم ويحتضنهم.

إذا نظرنا الآن استعادياً إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في أوج مجدها أواسط العصور الوسطى، حيث أوروبا كلها تقريباً كاثوليكية، وحيث تاريخ البشرية مترکز رقمياً على ميلاد المسيح، وحيث بابا روما هو الحاكم الروحي، بل والزمني في الغالب، وحيث جماهير المؤمنين مشبعون تقوى مسيحية، وحيث الكاتدرائيات القوطية البديعة منتصبة، وحيث فيض الأديرة والكنائس، والكتبة والباحثون وآلاف الرهبان، والخوارنة، والراهبات، وحيث الرعاية المنتشرة على نطاق واسع للمرضى والفقراء، وحيث الشعائر المقدسة، والأعياد العظيمة بمواكبها ومهرجاناتها، والفن الديني المجيد للتراثيل الغريغورية، وجملة المسرحيات الأخلاقية المستمدة من قصص الإعجاز، وشمولية اللغة اللاتينية على الصعيدين الطقسي والبعثي، والحضور الكلي للكنيسة والتدين المسيحي في جميع ميادين النشاط الإنساني، هذا كله لا يسعه إلا أن يثير قدراً معيناً من الإعجاب بضخامة وعظمة نجاح الكنيسة في بناء صرح ثقافي مسيحي كوني شامل وفي أداء رسالتها الأرضية³³. ومهما كانت صحة المسيحية الميتافيزيقية

الفعلية، فإن الاستمرار الحي للثقافة المتمدنة الغربية بالذات مدين بوجوده لحيوية وانتشار الكنيسة المسيحية في طول أوروبا في القرون الوسطى وعرضها.

غير أن علينا، ربما، أن نحذر، قبل كل شيء من محاولة إسقاط معايير حكم علمانية حديثة على النظرة العالمية لحقبة أ بكر. إن السجل التاريخي يشي بأن المبادئ الأساسية لإيمان مسيحي العصر الوسيط لم تكن عقائد مجردة مفروضة من مرجعية كهنوتية، بل الجوهر الحقيقي لتجربتهم بالذات. أعمال الرب أو الشيطان أو العذراء مريم، حالتنا الخطيئة والخلاص، توقع مملكة السماء، ذلك كله كان مبادئ مفعمة بالحياة، داعمة ومحركة للعالم المسيحي عملياً. علينا أن نفترض أن التجربة في القرون الوسطى لواقع مسيحي محدد كانت ملموسة وواضحة ذاتياً، شأنها، مثلاً، شأن التجربة الإغريقية القديمة لواقع أسطوري بحشد آلهته وإلهاته، أو التجربة الحديثة لواقع لا شخصي وموضوعي مادي، مختلفة كلياً عن أي حالة نفسية ذاتية خاصة. هذا هو السبب الذي يلزمنا بأن نحاول النظر إلى النظرة العالمية في القرون الوسطى من الداخل إذا كنا نريد أن نقارب نوعاً من الفهم لتطور روحنا الثقافية. بمعنى من المعاني، نتحدث هنا عن عالم معين، بمقدار ما نتحدث عن نظرة عالمية محددة. وكما هو الوضع مع الإغريق نجدنا متحدثين عن نظرة عالمية دأب الغرب على صياغتها وقولبتها، وعلى نقدها وإنكارها، ولكن دون التخلي عنها في أي من الأوقات.

وبالفعل، فإن التناقضات العميقة الكامنة في الرؤية المسيحية نفسها - جملة التواترات والمفارقات الداخلية الكثيرة المتجذرة في منابع المسيحية المتعددة من ناحية وفي الطابع الديالكتيكي للتركيبية المسيحية من ناحية ثانية - هي التي كان من شأنها أن تظل دائبة وباطراد على تعطيل نزوع العقل المسيحي إلى الدوغمائية التوحيدية ضامنة، من ثم، ليس فقط حركيتها التاريخية العظيمة، بل وتحولها الذاتي الجذري أيضاً، مع مرور الزمن.